حيثما تهدى الأقدار

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى يوليو ٢٠٠٣

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com
almaktabalmasry@hotmail.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

حينما تهدى الأقدار

عيسى بيومى

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

باحث عن حقيقة

كان سالم طالبًا فى الجامعة يبلغ من العمر واحداً وعشرين عامًا أو أقل قليلا، لا تختلف حياته - كما يبدو - عن حياة طالب من أسرة متوسطة الحال تقطن مدينة من مدن مصر هى الإسكندرية.

وكان عظيم الطموح فى الحياة شديد الثقة فى نفسه يشعر بأن القدر يدخره لأمرهام فى مستقبله، حين يتحرر من قيود الدراسة ويواجه الحياة العملية. ولم يكن هذا الطموح وهمًا يخيم على عقله فى فترة المراهقة سوف تنقشع بعد قليل حين ترشده الأحداث ويوقظه الواقع وإنما كان متأصلاً فى نفسه، فهو منه يستمد الثقة ويتدبر النجاح.

وكان يكره الكذب ويتقصى الحقيقة من نفسه فى صرامة مهما سبّب له ذلك من تبرم أو ضيق ، لهذا فسر النجاح والفشل بطريقة تختلف فى جوهرها عن فهم من حوله، فالعبرة ليست بالنتائج فقط وإنما بقدر ما يمتلك من تأثير على تلك النتائج، فإذا فعل كل ما يمكنه لتحقيق أمر ما وواجهه القدر بعكس ما ينتظر لم يعتبر ذلك فشلاً أو سوء تدبير منه، وإذا أصابه نجاح لم يبذل فيه جهداً ولا ينظر إليه نظرة الناجحين ويأنف أن يفتخر به، ذلك لأنه يعلم حقيقة ما قدمه ولا يخدع نفسه بظواهر الأمور سواء أوحت بالاستياء أو جلبت الرضاء.

وهكذا أصبح شديد الحيطة فى تصديق ما يسمعه أو قبول ما يراه الناس

صوابًا، بل كان أدعى لإثارة شكه أكثر الأمور شيوعًا وانتشاراً، وكثيراً ما كان يدلل على صدق هذه النظرة بآراء الفلاسفة والشعراء والكتّاب مثل أبى العلاء المعرى وشوبنهور والمتنبى وتوماس هاردى وغيرهم؛ الذين لم يحمدوا الناس أخلاقهم ولم يطمئنوا لنواياهم ولم يثقوا كثيراً فى دوافع الخير فى نفس الإنسان.

وكان ينصت لحديث زملائه فى الجامعة ممن يقضون أجازاتهم الصيفية فى أوروبا وأمريكا وهم يصفون ما وصلت إليه الحياة هناك من رقى وتحضر يفوق أحلامهم فلا يصدق أن يبلغ الإنسان المثل الأعلى فى تاريخه ذاك القصير، ثم يصفون ما بلغه التحرر فى علاقة الرجل والمرأة من مدى فلا يصدق أن يتهاوى الإنسان إلى هذا الدرك الذى يصفونه. وكان دائما ما يعقب تصوير محاسن الغرب الإفراط فى تعديد مساوئ الشرق، وتساءل فى نفسه أليس الإنسان هو جوهر الحضارة وعمق فهمه هو شرط تقييمه والحديث عنه، فهل فهموا الإنسان حقًا فى غربه أو شرقه أم أن زخرف الحياة يأسرهم؟

وكانت الجامعة ترتب للراغبين فى السفر من طلابها أثناء الأجازة الصيفية فتفتح مكتبًا خاصًا لتنظيم استخراج جوازات السفر وتعلن عن الدول التى ترحب بزيارة الطلبة إليها وشروط هذا الترحيب، وألحت على سالم فكرة أن يخوض تلك التجربة ليشهد بنفسه ذلك الواقع الذى يختلط وصفه بالأحلام والأوهام ويستخلص لنفسه حقائقه. وعرض على والده فكرته قائلاً:

- سوف أسافر إلى إيطاليا بالباخرة ومن هناك أستقل القطار إلى النمسا حيث يسهل الحصول على عمل، بهذا الترتيب نقتصد فى التكاليف.

ورد والده.

- ليس لدى مانع لسفرك ولكن كيف تسدد تلك التكاليف؟

أجابه سالم .

- المرتبات فى أوروبا أعلى من هنا بكثير ويكفينى عمل شهرين لتغطية كل النفقات هذا ما أكده الكثير من زملائى الذين جربّوا السفر من قبل.

وسأله والده.

- وهل تخيرت أحداً من زملائك لصحبة السفر؟

- سوف أسافر وحدى .

تمتم الوالد الذى يعرف ابنه.

- هذا ما ظننته .. الله معك.

وبدأ سالم يستعد.

●●●●●

أى اختيـــار؟

استكمل سالم مستندات السفر كالجواز والبطاقة الصحية واشتراك بيوت الشباب ولم يتبق سوى أن يحصل على تأشيرة دخول النمسا التى قرر السفر إليها لتوفر العمل بها ثم يحجز تذاكر السفر، وكان ذلك فى النصف الثانى من شهر يونيه وقد انتهت الامتحانات، وفوجئ بأن اجراءات الحصول على تأشيرة النمسا قد ازدادت صعوبة مع الإعلان عن منع العمل قانونًا، ولا تزيد فترة السماح للطالب بالزيارة عن أسبوعين فقط، وكان الحال بالنسبة للمملكة المتحدة أكثر تعقيداً وأيضًا هولندا وهكذا... إلا أن إعلانًا عن سويسرا بدا مطابقًا لأحلام الطلبة الراغبين فى السفر، فالعمل متوفر بها سواء فى المصانع أو المزارع بأجر شهرى مُغرى مع العلم بأن تأشيرة الدخول إليها ميسرة لمن يرغب من الطلبة ولمدة ثلاثة أشهر، والعمل مسموح به رسميًا ولم يكن الأمر فى حاجة لتفكير وتدبير فقد قرر سالم على التو تعديل وجهته إلى هذا البلد المضياف.

وتوجه من فوره إلى شركة سياحة يستفسر عن مواعيد السفر إلى سويسرا فوجد أقربها يوم الثامن والعشرين من يونيه فحجز على هذا التاريخ متصوراً إمكانية حصوله على تأشيرة الدخول خلال الأسبوع المتبقى حتى ذلك الموعد.

وكانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر حين خرج من البنك مستبدلاً بعض النقود الأجنبية لزوم نفقات السفر، وتبددت فرصة التوجه

إلى قنصلية سويسرا فى الجانب الآخر من المدينة، ولم يجد خياراً أمامه سوى السفر للقاهرة وتوجيه طلبه للسفارة مباشرة اختصاراً للوقت.

وأخبر والده لدى عودته للمنزل بوجهة سفره الجديدة وأنه سيستقل الطائرة مباشرة إلى هناك لأن تكلفة الباخرة إلى إيطاليا ثم القطار إلى «زيورخ» لن توفر الكثير مع ضرورة الحصول على تأشيرة إيطاليا.

وسافر سالم إلى القاهرة فى اليوم التالى متحسسًا طريقه إلى سفارة سويسرا مطمئنًا أنه سينجز المطلوب فى يومه أو غده على الأكثر. وما أن اقترب من مبنى السفارة حتى هاله الزحام الذى يحيطه والذى ميزه بمئات من الطلبة الساعين للسفر إلى سويسرا. وسأل أحد الواقفين.

- هل كل هؤلاء ينتظرون الحصول على التأشيرة؟

أجابه بغير اكتراث.

- إنهم يسعون لمقابلة القنصل لتقديم طلب التأشيرة.

ولاحظ أن باب السفارة مغلقًا والجموع حاشدة أمامه فعاد يستفسر وكأنه يحدث نفسه.

- وهل يحصل الطالب على التأشيرة فى نفس اليوم؟

أجابه الواقف إلى جواره متأففًا.

- بعد يوم من المقابلة.

شق سالم طريقه نحو الباب الموصد ليحصل على طلب المقابلة ثم عاد به مرة أخرى ليسلمه ويعرف موعدها فأخبره الحارس بأن يعود فى الواحدة بعد الظهر، لكنه لم يجد بداً من الانتظار مثل الآخرين خشية أن تتبدد فرصته بين المتزاحمين.

وفى الساعة الواحدة أذيعت الأسماء وموعد المقابلة المحددة لكل منهم، وفوجئ بأن موعده يوم الخميس القادم السابع والعشرين من يونيه، وهذا يعنى حصوله على التأشيرة فى الثامن والعشرين وهو يوم سفره، وحاول أن يفهم الموظف أن الموعد الذى حدد له لا يتفق مع موعد سفره ورجاه أن يقدمه يومًا واحداً فلم يعبأ به ونصحه أن يؤجل سفره.

عاد سالم إلى الإسكندرية مسرعًا وتوجه إلى مكتب السياحة طالبًا تأجيل موعد سفره إلى السبت التاسع والعشرين من يونيه فاعتذرت له الموظفة لعدم إمكانية ذلك نظراً لعدم وجود أماكن خالية حتى النصف الثانى من شهر يوليه، وهو ما يعنى إلغاء الرحلة بالنسبة له. وهكذا لم يعد أمامه غير محاولة الحصول على التأشيرة يوم الخميس، وهكذا أجبره القدر أن يلجأ إلى أحد أقاربه طالبًا المساعدة.

وفى يوم الأربعاء غادر الإسكندرية مودعًا أسرته على نية السفر إن تمكن قريبه من التدخل لدى السفارة وتذليل تلك العقبة أو إلغاء الرحلة إذا فشلت المحاولة. وفى القاهرة شرح لقريبه حرج موقفه فطمأنه ناصحًا ألا يبالغ فى قلقه، لكنه طلب منه أن يحاول مرة أخرى دون تدخل منه، فذهب مسرعًا إلى السفارة ولمح سكرتير القنصل قريبًا من الباب فاقترب منه وتوجه بالحديث إليه قائلاً:

- معذرة هل تسمح بلحظة.

توقف الرجل على مضض وأجابه.

- تفضل ماذا تريد؟

بيّن له سالم باختصار مشكلته ورجاه أن يقدم موعد مقابلته إلى اليوم أو يستثنيه من انتظار التأشيرة يومًا ليتمكن من السفر فى موعده، لكن الرجل رفض قائلاً وهو يبتعد عنه.

- لا يمكن يا بنى، لدينا نظام هنا ولا يحق لأحد مخالفته، إذهب وغير موعد سفرك. لماذا تتعجلون الأمور؟

شعر سالم بمرارة الواقع فى كلمات الرجل وتساءل عن قيمة الاختيار، وعاد إلى مسكن قريبه بخطى بطيئة متثاقلة يحاول أن يهدئ من غضبه على تصاريف القدر التى تبدى عصيانها لتدبيره منذ البداية وتظهر رفضها أن توافقه ، ورآه قريبه مهمومًا فطمأنه وكأن الأمر قد قضى ودعاه إلى العشاء ليسرى عنه.

وفى الغد رأى سالم بعينيه ما تصنعه المحسوبية فوق أية دعوى بحق أو ادعاء بنظام، فبعد أن كان يزاحم من حوله ليصل إلى باب السفارة وجد نفسه فى حجرة سكرتير القنصل يلحّ عليه بالجلوس ويدعوه لشرب الشاى فى مودة ولطف ويحدثه عن أبنائه الذين يعملون معه، ووجد من يحمل عنه جوازه وأوراقه لينهى المطلوب فى دقائق ويعود إليه بتأشيرة دخول سويسرا مع تمنيات القنصل بقضاء أجازة ممتعة. ورجع سالم إلى قريبه شاكرًا وممتنًا له وإلحاح الغد يدفع عنه الشعور بعدم الرضا لما اكتشفه من نقائض النفس البشرية أو نقائصها.

●●●●●

نحو المجهول

استيقظ فى الصباح الباكر حوالى الخامسة بعد نوم هزيل بسبب القلق الذى ينتابه عادة ليلة السفر، لكنه بدافع ما سيكون كان يقظًا متنبها. واصطحبه ابن عمه إلى مطار القاهرة.

كانت عيناه تصافحان شوارع القاهرة ومنازلها التى يراها للمرة الأولى فتنطبع على ذاكرته ملامح المدينة الخالدة. ولاحظ ابن عمه انشغاله بالطريق فآثر الصمت ليمنحه خلوة النفس وهى تستمرئ ملامح الوطن الذى سيغيب عن ناظريه بعد وقت قصير.

وفى المطار ودع رفيقه وتوجه لينهى اجراءات سفره ثم وجد نفسه فى صالة الانتظار فجلس ينتظر النداء على طائرته وحقيبته الصغيرة إلى جواره. وأخذ يتصفح وجوه الناس من حوله وكأنها أغلفة كتب قد يُستدل بها على المحتوى أو تظل غامضة تشترط القراءة المستفيضة لتدل على قيمتها، فهذا وجه هائم فى ذكريات سعيدة تستجلب البسمة على شفتيه، وهذا وجه تنطق عيناه بآلام الفراق، وهذا وجه جامد لا تنفذ منه أحاسيسه فلا تعرف ما قد يحتوى صاحبه فى تلك اللحظة، وهذا وجه يعكس نظرتك كسطح زجاجى بلا معنى. ومع انتقال البصر بين تلك الوجوه تتبدل مشاعره من الارتياح إلى الشفقة إلى الضجر إلى الملل. ولو أتيح لأحد أن يطالع وجهه حينئذ لوجده طاويًا فى عينيه مشاعر القلق والانشغال. ماذا ينتظره فى الغيب من

مجهول لم يختبره وأمر صعب لن يقدر عليه، هل ستنجح رحلته وتصدق تجربته أم ستفشل وتنكشف عن النفس جوانب ضعفها وادعائها ؟ وتذكر أن المحك فى التجربة هو صموده بمبادئه وأخلاقه ومقاومة أى تنازل تزينه النفس لتحقيق مكسب مادى زائل، والآن عليه أن يبرهن أن ما يستمسك به من مبادئ وخلق لا يرتبط بوعظ المجتمع أو رقابة الأسرة أو المكان الذى بزغ فيه الضمير.

ومضت تلك الأفكار تسترسل فى ذهنه حتى سمع النداء على طائرة «أليطاليا» التى تقلع فى التاسعة متجهة إلى «روما» ومنها إلى «زيورخ» كما هو محدد على تذكرته.

نهض حاملاً حقيبته واتجه إلى الممر المخصص لركاب تلك الرحلة وبعدها ركب أوتوبيسًا نقله ومن معه من مسافرين إلى الطائرة. دلف إلى الطائرة حيث اتخذ مكانه بجوار النافذة. وامتلأت عيناه بما سمحت به النافذة من أرض الوطن وقد امتلأ القلب بكل ما يعنيه هذا الوطن، ثم اندفعت الطائرة تمرق فوق السحاب حيث ذابت الحدود فى مرمى البصر وإن ظل القلب ينبض بما فيه.

●●●●●

ظنـــون وهمـــوم

هبطت الطائرة فى أثينا باليـونان ثم أقلعت بعـد نصف سـاعـة حـيث التقطت أنفاسها وتزودت بالوقود وهى الآن فى طريقها إلى روما. كان سالم يظن أنه بمجرد هبوطه فى روما سيستقل طائرة أخرى إلى زيورخ كما هو مقرر لكن ما ظنه كان مختلفا عما تحقق فى واقعه. بعد هبوط الطائرة توجه إلى صالة الترانزيت كى يحجز مكانه فى طائرة زيورخ لكنه فوجئ مثل الآخرين أنه لا توجد طائرات متجهة إلى هذه المدينة فى ذلك اليوم بسبب الإضراب وقد يضطر الجميع لقضاء الليلة فى روما وهو ما لم يرغب فيه أحد، ولكن ما الحيلة؟ حاول أن يغير تذكرته إلى شركة طيران أخرى تمكنه من الانتقال فى نفس اليوم دون جدوى، فكل الطائرات المتجهة إلى زيورخ ممتلئة، وكانت المحاولة التالية هى التأكد من وجود طائرة فى الغد وهو ما أمكن التوصل إليها ولكنها طائرة السابعة مساءً.

غادروا المطار فى أوتوبيس خاص إلى فندق مطار روما حيث سيقضون ليلتهم دون ترتيب أو انتظار، وكان معظمهم من الطلبة المصريين، وعلم سالم أن الطائرة كانت تنقل عدداً آخر منهم توجه إلى جنيف دون اضطرار للمبيت فى روما.

كان الفندق جميلاً على بساطته، يشتمل دوره الأرضى على حمام سباحة وصالة لألعاب البلياردو وقاعات للطعام والجلوس وبار، أما حجرات المعيشة وعددها مائتين وخمس وستين حجرة فتوجد فى الأدوار العليا، الممرات بينها

مفروشة بالسجاد والحوائط مزينة بالصور بطريقة هادئة لكنها كافية، وقد اضطر الفندق إزاء العدد الكبير القادم للمبيت أن يجمع كل اثنين فى حجرة واحدة، ولم يكن سالم يعرف أحداً ليتخيره رفيقاً فرضى بعشوائية التوزيع. وتوجه مع رفيقه الذى عرف أن إسمه "مجدى" إلى حجرتهما ليغتسلا ويستعدا للعشاء.

سأله رفيقه وكان أكبر منه سناً

- هل هى المرة الأولى التى تسافر فيها إلى أوروبا؟

أجابه سالم

- نعم، وأنت؟

رد عليه بثقة

- هذه ثالث مرة أسافر إلى سويسرا، المرة الأولى هى الأصعب دائما لأنها تعتمد على الحظ والمفاجأة، مالم يكن لك هناك بعض الأصدقاء لمساندتك فى البحث عن عمل.

- فى الحقيقة لا يوجد. هل تظن أن فترة البحث عن عمل قد تطول؟

- يختلف الأمر من مكان إلى مكان، أيضاً لا تنس أننا تأخرنا فى السفر إلى حد ما. أسبوع أو أسبوعين مبكراً عن ذلك كان أفضل وأمن.

- لكن الأجازة بدأت من أسبوعين فقط، وكان لابد من استخراج جواز السفر والحصول على التأشيرة.

- البعض يمكنه إنهاء ذلك فى يومين.

- نعم قد أدركت ذلك.

- دعنا إذن ننزل إلى المطعم فقد حان موعد العشاء.

وفى المطعم تجمع على المائدة التى ضمت سالم ومجدى وأربعة من الطلبة المصريين الآخرين، ولم يكن أحد منهم يتحدث الايطالية، فتولى المضيف إطعامهم على هواه، ودار الحديث بينهم فى موضوعات شتى إلا الموضوع الذى يشغلهم جميعاً وهو الغد، وكأنما اتفقوا على تفاديه ليهنأوا بالطعام.

وكان أحدهم مهتماً بالأدب فتطرق الحديث إلى الأدباء وإذا بأحدهم يتساءل

- ولماذا لم يصل أدبنا إلى العالمية مثل الأدب الروسى؟

قال الذى يجاوره وهو يرمقه بنظرة اتهام

- ولماذا تذكر الأدب الروسى يا "عودة".. أنت تخلط الأدب بالسياسة.

أظن الأدب الإنجليزى أو الفرنسى أحق!

قال سالم

- الأدب العربى لا يقل إنسانية عن أى أدب عالمى وإنما يقصد الناس بالعالمية الإنتشار وهذا يعتمد على اللغة المكتوب بها ونشاط الترجمة منها إلى اللغات الشائعة، ويجب أن نعترف بأن اللغة الإنجليزية هى أوسع اللغات إنتشاراً فى عصرنا.

قال "عودة" موجهاً حديثه إلى زميله الذى استفزه لموقفه السياسى

- لا تنس أننى أدرس الأدب الإنجليزى مثلك، والأدب الروسى الذى قصدته هو أدب تولستوى وديوستفسكى وجوجول وبوشكين وليس الأدب الذى أفرزته الثورة البلشفية، فلا تخلط الأمور.

عاد زميله يناوشه

- الأدب لا ينفصل عن السياسة إن كان أدباً حقيقياً يعبر عن الحياة فى عصره، إقرأ ديكنز لتعرف انجلترا فى حينه وإقرأ هوجو لتعرف فرنسا فى وقته.

تدخل سالم في الحديث مرة أخرى محاولاً التهدئة قائلاً

- هذا صحيح إلى حد كبير لكنك تقصد به إثارتنا سياسياً.

قال "عودة" مدافعاً عن نفسه فى تظاهر واضح

- إننى مقتنع بما يفعله السادات، إخلاصه للوطن لا شك فيه وإن اختلفت الآراء فى تقييم أفعاله.

قال زميله

- كلهم يخلصون للوطن وإن أكدت أفعالهم عكس ذلك.

قال سالم متضايقًا

- إذ هزم السادات إسرائيل واسترد الأرض فهو أخلص المخلصين.

سأ له الجالس إلى جواره

- مهما كان الثمن؟

أجابه فى ثقة

- مهما كان الثمن؟

قال مجدى وقد بدأ يتثاءب

- يجب أن نرتب أولوياتنا، السياسة والأدب ليسا فى المقدمة بالنسبة لنا الآن،علينا الاستعداد للغد، وسأبدأ بالنوم مبكراً.

واستجاب الجميع لدعوته وصعدوا لحجراتهم فقد قاربت الساعة الحادية عشرة. وفى الغد حملتهم الطائرة إلى مطار "زيورخ" وكانت الشمس فى مغيب تضئ السماء بلون أحمر يثير فى النفس نفوراً، لولا أن السحب تمنعه أحياناً أن يصبغ كل شىء فتبدو وكأنها نوافذ تفتح على الجحيم، تعطى أملا زائفاً لمن يسكنه وفزعاً مستمراً لمن يراقبه من بعيد.

كان سالم يبتسم كلما تذكر الساعات الهادئة التى قضاها فى فندق المطار بروما بين صحبة لم ينتظرها أو يرتب لها، ثم يتذكر أنه لا يعرف له مأوى فى ليلته القادمة فتختفى الابتسامة وتندثر.

هبطت الطائرة بعد ساعة وثلث فى مطار "زيورخ" بين أمطار خفيفة استقبلت القادمين إلى سويسرا فى حفاوة تقليدية. مر بحقيبته من سلطات المطار بعد أن تثبتوا من جواز سفره ثم توجه إلى البنك لاستبدال الفرنكات السويسرية بما معه من دولارات، ثم ركب الأوتوبيس متوجهاً مع حشد من الركاب معظمهم من الطلبة المصريين إلى داخل زيورخ.

سار الأوتوبيس خلال طريق يكاد يكون مخطوطاً فوق لوحة رسام عمل جهده لكى يظهره فى أبهى منظر وأحسن تنسيق. جوانب الطريق عبارة عن مرتفعات تحفها أشجار كثيفة زادتها أضواء المصابيح بهاء فوق بهائها. وتبدو السماء من خلال الأشجار صافية رائقة إلا بعض السحب الخفيفة التى لم تمنع النجوم أن تتلألأ وتشع بضيائها فى زهو غير عابئة بظلام الليل.

كان سالم سارحاً بخياله فى كل ما يراه لا يفكر فى شىء وقد ترك الأقدار فى تلك اللحظة تدفعه إلى حيث تريد.

توقفت السيارة أمام استراحة "السويس أير" وهبطوا منها جميعًا فهنا نهاية المطاف. من هذا المكان يمكن للمرء أن يتخير أى طريق يشاء، فهو محاط بمحطات الترام والأوتوبيس والترولللى التى تصل إلى أى طرف من أطراف المدينة بالإضافة إلى محطة القطار القريبة التى تربطها بالمدن الأخرى فى سويسرا وأوروبا. هناك أيضا على مرمى البصر مكتب استعلامات يمكنه أن يرشد إلى أى عنوان أو فندق أو حتى حجرة فى منزل قد يمكن استئجارها. إذن فكل شئ ميسر إلا أن تتخذ قراراً، فمع حرية الاختيار ينشأ التردد والحرج وتصعب الحياة!

الساعة تعدت العاشرة وبيوت الشباب مغلقة منذ السابعة ومحاولة الوصول لحجرة خالية بفندق ملائم باءت بالفشل ولا مفر من الانتظار فى هذا المكان حتى يأذن صباح اليوم التالى بالظهور، وصادف سالم ومن معه عدداً من الطلبة المصريين وجدوهم يحومون فى نفس المكان، أنصت لأحدهم وهو يقول

- إنها مسألة حظ، بعض الطلبة يحصل على العمل يوم وصوله، والبعض يمضى أياماً وأحياناً أسابيع ولا يدرك غير اليأس والندم.

سأله سالم حانقاً

- إذن فالعمل ليس متوفراً لمن أراد كما زعموا فى مصر؟

أجابه

- لا أدرى، فقد قضيت أسبوعاً منذ مجيئى ذهبت فيه إلى برن

لاستخراج مستند من سفارتنا هناك يثبت أننى طالب ويحدد فترة أجازتى، بدون هذا المستند لا يسمح لأحد بطلب الحصول على عمل.

قال سالم فى قلق

- هذا المستند أحمله معى من مصر.

- معى نفس ما أتيت به لكنه غير كاف لأنه لا يثبت تاريخ انتهاء العطلة الصيفية، لابد من الحصول على المستند المطلوب من السفارة المصرية كما فعلنا جميعاً.

سأله أحد القادمين الجدد

- لابد أن السفر إلى برن يتكلف كثيراً.

أجابه الطالب الخبير

- من الأوفر أن تعهدوا لأحدكم بجوازات السفر يذهب بها إلى السفارة ويعود لكم بالمستند المطلوب وتقتسمون التكلفة فهى كبيرة ليتحملها فرد واحد، ولا تنسوا أن غداً الأحد حيث تغلق السفارة.

تساءل آخر فى تلهف

- كيف تقضون الليالى هنا، فى بيوت الشباب أم فى الفنادق؟

إبتسم المسئول فى إشفاق وأجابه

- بيوت الشباب تسمح بالإقامة ثلاث ليال متتالية بعدها تغادر البيت ليلة واحدة على الأقل ثم تعود إن شئت، أما الفنادق فلا طاقة لنا بأسعارها. بصراحة نقضى بعض لياليا فى الحدائق أو على محطات الترام أو متجولين بين تلك المحلات المنشأة تحت الأرض.

تساءل سالم فى وجوم

- ألا يمكننا الانتظار فى استراحة "سويس أير" حتى الصباح؟

- إنهم يغلقونها فى الحادية عشرة.

هكذا فرض الواقع القائم نفسه ووجد سالم نفسه فى مواجهة ساعات الليلة الأولى فى هذا البلد بدون مأوى، وغادروا جميعا الاستراحة وتوجهوا نحو هذا التجمع من المحال التجارية المنشأة تحت الأرض يتجولون فى طرقاته والدقائق تمضى بهم بطيئة متثاقلة.

هناك قابلوا عدداً آخر من الطلبة المصريين اتخذوا من هذا المكان موئلاً بعد أن أعيتهم السبل. ومع تقدم ساعات الليل بدأ المكان يعج بقادمين جدد من صنف آخر من الناس يشهده سالم للمرة الأولى فى حياته وهو صنف الشواذ من الرجال أتوا مدفوعين بحاجتهم الخفية مستغلين حاجات الآخرين.

نظر إلى مجدى مشمئزاً وكان يسير إلى جواره فبادره بالقول

- لا تنزعج الشذوذ مباح قانونًا فى هذا البلد، يعتبرونه جزءاً من حرية الفرد الشخصية سواء رجلاً أو امرأة

وتساءل سالم

- ولماذا يترددون على هذا المكان، أظن أن لهم أماكن خاصة بهم؟

- اكتشفوا فيه تجمعا من الشباب بلا مأوى من جنسيات متعددة، هنا يزداد المعروض وتفيد المساومة.

- أرجو ألا يستسلم طالب مصرى لضغط الحاجة بهذا الشكل المهين، فأكرم له أن يعود لأهله.

- لا أحد يقدم على ذلك إلا ولديه استعداد قديم فلا تيئس.

سأله سالم

- وهل كان الحال كذلك فى العامين الماضيين؟

- فى الحقيقة قد فوجئت بتلك الأعداد المتزايدة من الطلبة التى لم أشهدها فى رحلتىّ السابقتين.

وكلما حاول سالم الابتعاد عن تلك المشاهد بالصعود فوق سطح الأرض أجبرته برودة الليل القارصة للعودة مرة أخرى حتى انبلج الصبح فى الخامسة وبدأت حركة الانتقال تدب فى أوصال المدينة، حينئذ خرج ومن معه من هذا الجب يتعثرون فى ضوء الصباح بعد أن تعثروا فى ظلام الليل. كان البرد يقرص أنوفهم وأطراف أصابعهم وهم ينتظرون أول ترام ينقلهم إلى بيت الشباب ليدبروا أمر ليلتهم القادمة. ترك سالم حقيبته فى أمانات استراحة "سويس أير" كى تسهل حركته على أن يعود لاستردادها إذا تمكن من حجز سرير له فى بيت الشباب. لم يكن يفكر فى شىء سوى أن يأمن لنومه مكاناً لائقًا فى ليلته القادمة لكى يتسنى له بدء البحث عن عمل من غده، فاليوم الأحد والبلد تبدو مقفرة.

●●●●●

أمـل يتأرجـح

وصل سالم ومن معه إلى بيت الشباب حوالى السادسة صباحاً فوجدوه مغلقا لم يفتح أبوابه بعد فانتظروا مع المنتظرين وبرودة الصباح تفترس أجسادهم، وزادت القشعريرة حين علم سالم أن كثيراً من الطلبة المصريين قضوا ليلتهم فى الحديقة المجاورة للبيت لعدم وجود أماكن تكفيهم أو لضيق ذات اليد.

فتحت الأبواب فى السابعة والنصف وأخبرهم الموظف أن حجز أماكن المبيت تبدأ فى الثالثة بعد الظهر والجلوس للإنتظار داخل البيت يبدأ فى العاشرة صباحا. ولم يشأ سالم أن يظل واقفاً فى انتظار تلك الساعات الطوال ووجد نفسه ينسل وحيداً هائماً على وجهه لا يعرف وجهة المسير. استبد به الإرهاق نتيجة السفر وما تبعه من سهر طوال الليل فى غير راحة أو هدوء وما نما إلى علمه من أحداث ومصاعب يواجهها من سبقه إلى هنا من زملائه على عكس ما توقعه الجميع. ضاقت عليه نفسه وأوشكت أن تفلت عزيمته وتسلمه إلى حيرة وشك فى جدوى ما أقدم عليه، وكانت قدماه تمضيان به فى أدغال الحدائق المحيطة بالبيت فتوقف عند أكمه وتطلع إلى السماء ينشد عونها.

تمكن من قضاء تلك الليلة فى بيت الشباب، لكنهم لم يسمحوا له أو لسواه بالاستمرار لأنها آخر ليلة فى شهر يونيه، ومع بداية كل شهر جديد

تراجع سجلات البيت ثم تُفتح صفحة جديدة، ويمكنهم العودة لو شاءوا بعد تلك المراجعة.

كان قد تأكد من ضرورة الحصول على شهادة السفارة المصرية بموعد الأجازة الصيفية فاتفق وتسعة آخرون أن يتولى أحدهم هذه المهمة،فسلّموه جوازات السفر واتفقوا على اقتسام التكاليف على أن يتقابلوا جميعاً فى استراحة "سويس آير" ابتداءً من الثانية عشرة وحتى الرابعة بعد الظهر ليستردوا الجوازات ويتسلموا الشهادات. انطلق الزميل إلى برن فى الصباح الباكر وخرج سالم من بيت الشباب يفكر فى كيفية قضاء الوقت حتى موعد مقابلته، فهو لا يحمل جواز سفره ولم يحصل بعد على مستند رسمى يؤهله للبحث عن عمل، لكنه لن يظل بلا حراك طوال تلك الساعات، وعلى كل حال فهو يحمل اشتراك بيوت الشباب وشهادة التطعيم الدولية وفيهما ما يثبت شخصيته.

اتجه إلى محطة "السنترال" حيث استخرج اشتراكاً فى جميع المواصلات الداخلية لمدينة زيورخ لمدة ستة أيام وهى مدة كافية ليبحث عن عمل فى هذه المدينة كما قدر. واتخذ لنفسه خطة فى البحث، وهى أن يختار تراماً أو أوتوبيساً يركبه حتى نهاية خط سيره مستكشفاً كل ما يحيطه من فنادق ومطاعم ومحلات أو أى مكان يصلح السؤال فيه عن عمل، ثم يعود أدراجه سيراً على قدميه مستفسراً لدى كل هؤلاء، ولو تابع ذلك بكل خطوط الترام والأوتوبيسات الرئيسية لتمكن من طرق معظم أبواب الرزق الممكنة، وتبعًا لذلك بدأ بالترام رقم "٧".

كان يدخل المكان فيسأل عن أحد يتحدث الإنجليزية فإذا وجد سأله عن مدير المكان الذى يسأله بدوره عن فرصة عمل ليجيبه الأخير بالنفى وهكذا.

ثم استقل أوتوبيسًا حمله إلى مشارف المدينة حيث لاحظ وجود مصانع وشركات كثيرة، لكنه حين توجه للبحث عن عمل فيها لم يكن أفضل حظاً من مصريين سبقوه إلى هناك.

لاحظ أثناء سيره طريقًا ممتداً فسار فيه بغير هدف، لكنه حين رفع بصره إلى يمينه لمح عن بعد فندقاً منزوياً تحفه الأشجار، وحدثته نفسه أنه لا فائدة ترجى من المحاولة خاصة أن المكان بعيد وقدماه تشكوان التعب، لكنه أصر أن يذهب إلى هناك.. كان ذلك فندق مطار زيورخ.

وصل إلى باب الفندق وقد تعلقت خواطره بجمال المكان الذى احتضنته الجبال وأحاطت به الحدائق ولفته زرقة السماء الصافية، انتبه إلى موظفة الاستقبال تسأله

- هل من خدمة أقدمها لك؟

أجابها مبتسماً

- نعم أريد مقابلة مدير الفندق إن كان ممكناً.

- بالطبع ممكن، هل أستطيع إخبارها بالسبب؟

- إننى أبحث عن عمل فى أجازتى الصيفية وأود لو سألتها.

- دقيقة واحدة سوف أتصل بها لأستفسر لك، يمكنك الانتظار فى حجرة الاستقبال.

جلس فى الحجرة التى أشارت إليها متأملاً زينتها ونظافتها، كان يتدلى على الحائط صورة للمنطقة الجبلية الرائعة التى يقع فيها الفندق، وهام خياله فى المكان حتى تنبه للمديرة وهى تدخل مبتسمة مادة يدها للتحية وهى تقول

- قيل لى إنك ترغب فى مقابلتى.

- يؤسفنى إزعاجك، أنا طالب في الجامعة وأبحث عن عمل في الأجازة الصيفية.

- أى نوع من العمل تريد؟

- ما يمكننى القيام به لو كان متوفراً.

صمتت السيدة لحظة تفكر ثم سألته

- هل تحمل تصريح البوليس بالعمل؟

قال متحمساً

- سوف أحصل عليه بعد الظهر بعد استكمال بعض الأوراق.

هزت رأسها قائلة

- آسفة لا يمكننى أن أوفر عملاً لك قبل بداية شهر أغسطس.

- هذا يعنى انتظار شهر بأكمله أشكرك على كل حال.

وانصرف متخذاً طريق العودة إلى استراحة"سويس آير" لمقابلة الزميل المرتقب الذى وصل فى الثالثة ومعه الشهادات المطلوبة، ومن ثم توجهوا جميعا إلى مركز البوليس لاستخراج تصاريح العمل.

أثناء الطريق وصف لهم هذا الزميل الأعداد الضخمة من الطلبة المصريين التى تملأ السفارة راغبة فى الحصول على تلك الشهادة، وكيف أن كثيراً منهم قضوا ليلتهم فى حديقة السفارة وأن "برن" ممتلئة بالكثيرين منهم يبحثون عن عمل فارين من زحام زيورخ الذى يزداد يومًا بعد يوم ولازلنا فى

أول يوليه وبعض الكليات لم ينته العام الدراسى فيها بعد، فكيف يكون الحال بعد أسبوعين وجميع رحلات الطيران إلى سويسرا من القاهرة محجوزة حتى أول أغسطس والحال في جنيف لا يختلف وربما أسوأ.

كان الجميع يستمعون والضيق يملأ صدورهم وشعور الإحباط يبسط جناحيه فوقهم، ولكن ما الحيلة؟ هذا واقعهم وعليهم مواجهته. حصلوا على تصريح البوليس بالعمل وعادوا إلى بيت الشباب ليطمئنوا على منامهم.

لقد تحول بيت الشباب إلى "كافيتريا" مصرية من كثرة المصريين المتواجدين فيه، لكن سالم انتحى جانباً منفرداً بنفسه بعد أن حجز سريراً لثلاث ليال متتالية فاطمأن باله من هذه الناحية وأخذ يطعم قطعة جبن وشريحة من خبز اشتراهما وهو يتدبر حاضره. طافت بذهنه أحداث اليوم وتذكر ما شاهده من اكتظاظ أماكن العمل بالعاملين وأن أقصى ما توصل إليه بعد البحث المضنى وعد بفرصة عمل بعد شهر. وبينما هو ساهم فى خواطره إذا بسؤال يقفز إلى ذهنه، لماذا لا يعقد اتفاقاً مع هذا الفندق يضمن به عملاً من أول أغسطس وفى نفس الوقت يبحث خلال هذا الشهر كما يفعل الآن فإذا حصل على عمل فيه أو ليتدبر أمره حتى بداية أغسطس؟ أعجبته الفكرة فعزم أن ينفذها فى الصباح.

انطلق فى صباح اليوم التالى لينفذ فكرته فوصل إلى فندق مطار زيورخ فى العاشرة والنصف بعد أن ضل الطريق إليه، تقدم من موظفة الاستقبال السابقة يحييها ويطلب منها مقابلة المديرة لنفس موضوع الأمس لكنها أخبرته بخروجها منذ دقائق وأنها لن تعود قبل الخامسة. لم يستسلم سالم وطلب منها أن يترك رسالة بمضمون الغرض من مقابلته على أن يعود فى الخامسة. تمسك بأهداب الأمل وهو يقترب من الفندق مرة ثانية والساعة

تتخطى الرابعة والنصف لكنه وجد رسالة قصيرة منها أن يقابلها فى التاسعة من صباح اليوم التالى لأنها لا تفهم ما يريد. أعطته الرسالة بموعد الغد بارقة من الأمل فعاد إلى بيت الشباب متسماً بحيوية طارئة قابلاً للضحك والمزاج مما لفت انتباه بعض أصدقائه الجدد وتمنوا له التوفيق.

قال لها بعد تحية رقيقة فى صباح اليوم التالى

- لقد حصلت على تصريح البوليس بالعمل ويمكننى أن أعقد اتفاقاً معكم ولو من أول أغسطس كما عرضت علىَّ منذ يومين.

سكتت طويلاً قبل أن تقول

- فى الحقيقة كان ذلك ممكناً يوم الإثنين الماضى، بالأمس بعد أن قرأت رسالتك راجعت أعداد الموظفين مع بداية أغسطس ولم أجد مكاناً شاغراً.

قال لها يائساً أو مؤنبًا

- وماذا لو وافقتك يومها على عرضك؟

أجابته فى هدوء وهى تبتسم

- كنت عينتك فوراً.. المشكلة أننى عينت إثنين من الطلبة بالأمس فقط وهو ما غير من خطتى لشهر أغسطس. أرجو أن تتقبل أسفى وأتمنى لك التوفيق فى مكان آخر، أنت تبدو لى شاباً طموحاً ذا عزيمة وإصرار فلا تيأس.

يبدو أنها لمحت فى عينيه شيئا ينطفئ ويتوارى فى غياهب النفس فأطلقت لسانها بتلك الكلمات، أما هو فقد نهض وغادر الفندق. كأنى بالحقيقة سحباً تحجب عنا أشعة الوهم التى نحيا بها ثم تتركنا فى ظلام،

لكن هذا الظلام خير من نور لا تأمنه الإبصار، فهو على الأقل يترك لنا نور العقول والقلوب وهو أبقى وأحق من نور الأبصار إن كان رافده الوهم. شعر سالم وهو يمضى فى طريقه بأن شيئاً يغيب عن بصره ويتوارى فى عالم المجهول تاركاً في خياله ذكرى لا تزول.

عاد إلى محطة السنترال التى استقل منها الترام رقم "٧" وأخذ يتجول ساعات ثلاث دون جدوي ثم ركب تراماً يحمل رقم "٣" إلى نهايته ومن هناك ركب "ترولّى" بنهايته وجد نفسه فى طريق غاص بمصانع السيارات، وبدأ جولته فى هذا الطريق. تنوعت الإجابات على سؤاله الوحيد بين من لا يسمح للطلبة بالعمل، ومن لا يعطى عقداً للعمل أقل من سنتين، ومن يشترط معرفة الألمانية، ومن يعتذر بجفاء، وبينما هو ماض فى سبيله إذا بشخص ينادى عليه بالعربية ففطن إليه وابتسم فسأله المنادى

- هل تبحث عن عمل؟

- نعم، لكننى لم أتوقع نداء بالعربية فى هذا المكان.

- كثيرون مروا من هنا قبلك وظنوا نفس الظن.

- إذن فالمنطقة هنا مطروقة من قبل بالباحثين عن عمل.

- لم يتركوا ثقب إبرة، لكن بعض المصريين استمر في السير بهذا الاتجاه ووجدوا عملاً فى بعض المزارع المجاورة، أنصحك أيضًا بالتوجه هناك.

- كم تبعد عن هنا تلك المزارع؟

- حوالي عشرين كيلو متراً.

- أشكرك على النصيحة وأتمنى لك وقتاً طيباً.

تركه سالم واستمر فى طريقه باحثًا وإن اهتزت عزيمته بما سمع. تقدم من أحد المصانع وسأل الحارس

- أين مكتب شئون العاملين؟

ولم يفهم من حديث الرجل بالألمانية سوى التوجه إلى اليسار، لكنه وجد نفسه بعد قليل فى صالة واسعة بنهايتها تجلس سيدة وفتاة وبعض الرجال فسأل دون أن يختص أحداً بسؤاله

- هل هنا مكتب العاملين؟

ولم يجبه أحد فأعادها بالفرنسية لكنه لم يحظ منهم بانتباه فعاد يسألهم مرة أخرى

- هل من أحد هنا يفهم الإنجليزية؟

تقدمت منه الفتاة وكانت منهمكة فى العمل على آلة كاتبة، تنبهت إليه حين سمعت السؤال الأخير وأجابت

- نعم، علام تبحث؟

- أسأل إن كان هنا مكتب العاملين ولكن لا أحد يجيب.

- معذرة فهم منهمكون فى عملهم كما ترى، هم أيضا لا يفهمون غير الألمانية، المكتب الذى تبحث عنه يوجد فى المبنى المجاور.

- أشكرك على مساعدتك وأتمنى لك يوماً هادئاً.

وهمَّ بالإنصراف فاستوقفته قائلة

- إنتظر سوف أصحبك إلى هناك حتى لا تضل طريقك مرة أخرى وربما احتجت لمترجمة.

- أشكرك جداً وأرجو ألا يكون فى ذلك تعطيل لعملك.

- لا ضير إنها فرصة للهروب، هيا بنا.

قالتها وهى تبتسم فى شغب كأنه يشاركها المؤامرة، كانت الفتاة لا تتعدى السابعة عشرة من عمرها. سارت إلى جواره نحو المكتب المنشود، سألته أثناء سيرهما قائلة

- هل يمكننى معرفة سبب ذهابك إلى هذا المكتب؟

أجابها وهو ينظر إلى وجهها الجميل

- لأسأل عن عمل.

- هل أنت طالب؟

- نعم، واعتدت أن أعمل فى عطلات الصيف.

- بأية كلية تدرس؟

- الهندسة جامعة الاسكندرية فى مصر.

- أى نوع من الهندسة تدرسه؟

- الهندسة الميكانيكية.

بعد برهة عادت تحاوره أو تحيره قائلة

- وإذا لم تجد عملاً هل ستعود لبلدك؟

- نعم ! لكن دعينى أسألك بدورى هل أنت موظفة هنا؟

- لا، أنا طالبة أيضا فى المدرسة الثانوية وأعمل هنا فى العطلة

الصيفية، لكننى لا أحب العمل مثلك خاصة هذا العمل الذى أقوم به على الآلة الكاتبة، إنه ممل، لقد أنقذتنى منه تلك الدقائق.

كان حديثها سهلاً وصوتها شيقًا أشعره بمودة صادقة لكنه انقطع بوصولهما إلى المكتب. تقدمت إلى الموظف المسئول وتحدثت معه ثم ترجمت له نتيجة الحديث قائلة

- يقول أن المصنع استوعب عدد الطلبة المسموح بتدريبهم وعادة يتم شغل الأماكن مبكراً من قبل بدء الأجازة بشهر، وهو محق فى هذا.

طلبت منه أن يجلس إلى منضدة قريبة وأخذت تتصفح جرائد الصباح باحثة عن وظائف شاغرة، سألته وعيناها فى إحدى هذه الجرائد

- ألا تستطيع التحدث بالفرنسية أو الألمانية ولو قليلاً؟

- درست الفرنسية في المدرسة الثانوية لكنها لم تستهوينى فنسيت معظم مفرداتها.

- هذه مشكلة فالإعلان يشترط الإلمام بإحدى هاتين اللغتين، بالرغم من طلاقتك فى اللغة الإنجليزية لكن ذلك لا يفيد هنا.

لم يعلق وإنما نظر فى وجهها فلاحظ خضرة عينيها الساحرتين والابتسامة لا تفارق فمها، استأنفت تقول

- اسمع، سوف أجرى عدة مكالمات تليفونية من منزلى بعد عودتى فى الخامسة مساءً وسأحاول البحث عن عمل لك فى المصانع مستعينة بدليل التليفون، حدثنى فى الثامنة مساءً على هذا الرقم لأطلعك على ما فعلت.. بالمناسبة إسمى "سابينا".

- إسمى "سالم" وأشكرك جداً على اهتمامك بأمرى.

كانت مشغولة بكتابة رقم تليفونها وإسمها على ورقة صغيرة أعطتها له، ثم أضافت وكأنها تذكرت شيئًا

-أو أتصل أنا بك.. أين تسكن؟

- الليلة فى بيت الشباب بزيورخ لكننى لا أعرف رقم تليفونهم، سأتصل أنا بك في الثامنة مساءً اليوم.

ودعها وانصرف لبحثه الدؤوب حتى اقتربت الشمس من المغيب ثم عاد إلى بيت الشباب صفر اليدين.

فى الساعة الثامنة ذهب إلى كشك التليفون المجاور للبيت للإتصال بالفتاة كما وعدها دون أن ينتظر من بحثها جدوى. رن جرس التليفون فى بيتها ورُفعت السماعة، لكنه لم يسمع سوى ضوضاء لم يميز فيها صوتها فقال بوضوح

- أرغب فى محادثة الآنسة سابينا.. إسمى سالم.

فشل فى تمييز أى صوت يتردد من الناحية الأخرى فذكر رقم تليفون بيت الشباب مفترضًا أنها تسمعه وأنهى المكالمة وعاد إلى حجرته. وبينما هو يغير ملابسه استعداداً للنوم إذ به يسمع نداء عليه بمكبر البيت أن له مكالمة تليفونية.

استعاد ملابس الخروج بسرعة وهبط من الدور الرابع إلى كابينة التليفون لكن فترة الانتظار كانت قد طالت فلم يجد أحداً على الناحية الأخرى من الخط.

لم يكن ممكنا أن يترك الأمر عند هذا الحد، فربما توصلت لشيء تريد أن تطلعه عليه، لهذا توجه إلى مصنعها فى صباح اليوم التالى وعلم منها أنها طلبت ما يقرب من مائة مكالمة لعدد كبير من المصانع لكنها لم تصل لشيء، ثم هزت رأسها وقد شعرت بإحباطه قائلة

- يمكننى أن أعاود البحث مرة أخرى لكن الأمل ضعيف مع عدم معرفتك الألمانية.

قال لها بإصرار

- لا أصرّ على العمل فى مصنع، إنه مجرد عمل صيفى فى أى مجال لأتمكن من قضاء العطلة هنا.

- هذا يوسع دائرة البحث، لقد انتقل إلىّ إصرارك وتشبثك بما تريد وسوف أفعل كل ما أستطيع. قابلنى غداً خارج باب المصنع الساعة الثانية عشرة لأطلعك على ما توصلت إليه.

وعادت مسرعة إلى عملها وتركته يستأنف كفاح يومه المعتاد. فى آخر النهار حمل حقيبته إلى"لوكاندة" بسيطة يقضى فيها ليلته بعد أن أمضى فى بيت الشباب ثلاث ليال متتالية ووجبت عليه مغادرته.

استيقظ يوم الجمعة ٥ يوليه نشيطاً متيقظاً واتخذ طريقه إلى مكتب لعمال المزارع فى قلب زيورخ يسأل فيه عن عمل فعرف أنه سيبدأ نشاطه يوم الإثنين القادم فتوجه من ثم إلى مقابلة "سابينا".

فى الساعة الثانية عشرة رآها تخرج من باب المصنع تتدلي حقيبة صغيرة من فوق كتفها، وما أن وقعت عيناها عليه حتى تقدمت منه بترحاب ومودة وبادلته التحية والسؤال عن صحته ثم استأنفت حديثها غير منتظرة لسؤاله قالت والتفاؤل يملأ وجهها بشاشة

- وجدت لك عملاً فى مكانين مختلفين أحدهما من المؤكد أن يقبلك والآخر ليس مؤكداً بنفس القدر لكنه أعلى أجراً فما رأيك؟

قال محاولاً أن يخفى انفعاله بما أخبرته به

- ربما نبدأ بالمكان الأول.

- هذا ما سنفعله معاً، إلا أننى أحذرك بأنه عمل شاق يتطلب شابًا قويًا مثلك كما أخبرنى مدير مكتب المقاول، لكننى أكدت له أنه لا يجب أن يقلق من هذه الناحية، أما المكان الآخر فهو شركة تجارية سوف تذهب إليها وحدك لأن موعدك معهم في الثالثة حيث أكون فى عملى، كتبت لك العنوان وإسم الرجل الذى ستقابله مع خطاب منى يؤكد ما دار من حديث واتفاق بينى وبينه بخصوص عملك معهم .

أعطته تلك الأوراق وهى تسرع به نحو محطة الأوتوبيس القريبة وتقول

- أذن لى رئيسى بنصف ساعة فقط أقضيها خارج المصنع أرجو أن تكفينا للوصول إلى مكتب المقاول لأننى لا أريد أن أتأخر عن موعدى.

استقلا الأوتوبيس وكان واقفًا فى المحطة، ثم نزلا فى مكان بدا لها أنه المقصود، لكنه حين استفسر منها بدت غير متأكدة. حاولت أن تستدل من المارة لكن أحداً لم يدلها، ومضت النصف ساعة فى البحث عن العنوان دون جدوى، قالت وهى تراقب ساعتها مترددة.

- يجب أن أعود إلى المصنع فوراً، وأنت أيضا لديك موعد فى الثالثة مع مدير الشركة التجارية ويجب أن تفى به. سأعتذر للمقاول بالتليفون حين أرجع.

سألها متخوفًا

- وإذا لم ألق موافقة المدير المنتظر؟

- أخبرنى بالتليفون فى السابعة مساء اليوم لكى أعرف ما جرى بينكما ثم نقرر ما نفعله، يمكننا أن نتقابل غداً أمام مصنعى ونذهب إلى المقاول حوالى الثالثة بعد الظهر.

- لكن غداً السبت عطلتك الأسبوعية.

- نعم أعرف، لذا بإمكانى أن أعدك فى هذا الموعد.

ذكّرته بعنوان الشركة المتجه إليها ووصفته له وصفاً دقيقاً وسلمته ورقة صغيرة فيها إسم المدير وموعد المقابلة ليعطيها لسكرتيرته.. قال لها مأخوذاً بدقتها وجدّها.

- لقد فكرتِ فى كل شىء.. إن كلمة الشكر لا تعبر عن امتنانى لك.

ابتسمت له ابتسامتها الصافية وهى تسرع نحو مصنعها متأخرة عن موعدها عشر دقائق.

وصل إلى مقر الشركة فى الثالثة تماماً واستقبله المدير على الفور، قال له وهو يصافحه بحرارة

- أرجو أن تعذر لى إنجليزيتى، لكنها ستكفينا للتفاهم معًا.

قال سالم

- معى خطاب لك بالألمانية قد يفيد.

تناول الرجل الخطاب وقرأه، ملامح الرضى بادية على وجهه، ثم قال

- الأمل كبير في موافقة مدير عام الشركة، سأعرض عليه الأمر فوراً.

قال سالم مؤكداً استعداده

- معى أيضاً تصريح البوليس بالعمل.

- هذا عظيم جداً.

استأذنه لمحادثة المدير العام حيث غاب بعض الوقت، قضاه سالم فى ترقب وقلق غير مصدق ما سيكون سواء إيجاباً أو رفضاً، ثم عاد إليه يعترى الشك وجهه وقال فى حرج

- توجد مشكلة. قد لا نستطيع توفير حجرة خاصة بك لإقامتك.

رد عليه سالم بسرعة

- يمكننى تدبير الإقامة فى فندق قريب.

سكت الرجل لحظات ثم استأذن سالم مرة ثانية حاملاً معه كل أوراقه متوجهاً إلى مكتب المدير العام. وبعد فترة وجيزة عاد إليه مقطب الجبين وهو يقول

- يؤسفنى جداً رفض هذا الرجل، لقد حاولت إقناعه بكل الطرق لكنه مصر على عدم تعيين طلبة في شركته. أتمنى لك حظاً موفقاً فى مكان آخر.

شكره سالم على ما بذله من وقت وجهد وانصرف من مقر الشركة. لم يعد أمامه سوى المقاول الذى فشل فى الوصول إليه هذه الظهيرة. وبينما هو يتذكر موعد السابعة مساءً يخبر فيه سابينا بما حدث ويؤكد موعدهما فى الثالثة من بعد ظهر الغد للذهاب إلى هذا المقاول تحسست يده في رعب تبحث عن الورقة المكتوب عليها تليفون منزلها فلم يجدها، وسقطت فى يده، لقد تركها مع حارس مصنعها حين قدمها له بالأمس طالباً مقابلتها ولم يتذكر أن يستردها منه.

سوف تنتظر مكالمته التي لن تحدث وتظن أنه قد وفق لعمل فى الشركة التجارية ولم يعد في حاجة إليها، وربما تتصل بالمقاول ليصرف نظر عن عمله لديه وتضيع تلك الفرصة أيضا. أوشك أن يحطم عزيمته الشعور بالإحباط وسوء تصاريف القدر لولا أن افترض إمكانية ذهابها لموعدهما فى الغد دون اتصال منه لو أنها ظنت أن أمراً صعباً يواجهه ويمنعه من الاتصال بها كما اقترحت عليه بنفسها ولكن هل هذا من المعقول؟ وبدا له أنه قد انزلق في دوامة من العبث واللا معقول أو أنه يتمطى أرجوحة ساخرة.

●●●●●

٦

أحضـــان العقـــل

مسـاء السـبت، قـاعـة الجلوس فى بيت الشـبـاب غـاصـة بالحـاضـرين من مختلفى الجنسيات كلهم شباب أتوا إلى سويسرا مدفوعين بحب المغامرة والسفر ومواجهة المجهول. سالم جالس إلى مائدة فى ركن بعيد معه ثلاثة من الطلبة المصريين تعرف عليهم فترة تواجده بالبيت واعتاد أن يقابلهم ويتبادل معهم آخر الأخبار. كانوا ينصتون إليه وهو يوضح لهم موقفه من مغامرته بعد مضى أسبوع منذ وصوله إلى زيورخ. لما سكت قليلاً يلتقط أنفاسه قال الجالس أمامه معقباً

- أنت محق بعقلك، لكن معظم الطلبة هنا يفكرون فى شىء واحد، هو تعويض تكاليف رحلتهم على الأقل، هم لا ينظرون إلى سفرهم كتجربة تمتحن مقدرة الذات على مواجهة ظروف مختلفة ومفاجئة أو محاولة لاكتشاف ما تملكه أنفسهم من مواطن قوة وما تخفيه من نقاط ضعف أو كما قلت أن التحقق من المثل والقيم فى ميزان الواقع الغير مألوف، هذه الرحلة لكثيرين عبارة عن مشروع تجارى يجب أن يحقق ربحاً مادياً مرضياً.

قال سالم وهو يتذكر المال الذى أعطاه له والده

- لا أظنك تعنى أن الربح المادى لابد من الحصول عليه بأية وسيلة ولو كانت مخلة بالشرف؟

قال الجالس عن يمينه وكان شاباً نحيفاً قلقاً

- نحن نحاول بما عرفناه ولم ننجز شيئاً، الشرف يختلف معناه من مجتمع لمجتمع، نحن الآن فى سويسرا ولسنا فى مصر، المهم عدم مخالفة القانون.

رد عليه سالم

- فى سويسرا أيضا أخلاق وشرف، ما يختلف هو قدر الحرية الفردية الذى يقبله ويصونه المجتمع لأبنائه. هل تظن السرقة هنا غير مخلة بالشرف؟

قال الشاب الجالس إلى يساره فى غضب واضح

- هل تعرف أن أهلى استدانوا تكاليف سفرى منتظرين أن أعود إليهم بأضعاف ما استدانوه، ما موقفى إذا عدت اليهم خالى الوفاض بسبب عدم حصولى على عمل، هل تظنهم سيتقبلون إخفاقى راضين أننى عدت اليهم بشرف؟

قال سالم

- لست أغنى منكم، أيضا جئت مثلكم متمنياً أن أجد عملاً وأكتسب مالاً، بحثت طويلاً وكثيراً دون جدوى وعلينا أن نعرف متى نكف عن المحاولة.

استمر الشاب الغاضب يقول

- هل تعتبر أسبوعاً فى البحث كافياً؟ إننى أبيت فى الحدائق منذ جئت لأتمكن من قضاء أطول وقت ممكن بما معى من نقود.

قال سالم مخاطباً نفسه وهو يتذكر انتظاره لسابينا ظهر اليوم دون جدوى

- ما معى من نقود يكفينى حتى يوم الأربعاء القادم، البحث يرتبط بالممكن لا بالمستحيل، العقل يواجه المعقول وليس العبث أو اللامعقول.

قال الجالس أمامه، إمارات الطيبة والهدوء بادية عليه، يبدو أنه شعر بما يعانيه سالم

- لا تبدو متفائلا اليوم كعادتك، ما يدريك ما تخبئه الأقدار حتى يوم الأربعاء، لا يزال هناك مكتب المزارع لم يبدأ نشاطه بعد، ومكتب جامعة زيورخ لم نزره بعد، والفتاة التى تساعدك لم ينقطع بها الأمل كما أخبرتنا.

قال سالم بابتسامة غامضة

- لابد من نظرة العقل لأسترد الإرادة وغير ذلك هو الاستسلام بعينه، تلك محصلة الأسبوع الأول، وهى بالنسبة لى المكسب الحقيقى.

قال الزميل الطيب دون أن يتحقق من فهمه لما سمع

- إذن فاقتراحى أن نمضى الغد فى نزهة بين أحضان تلك الطبيعة الخلابة سوف يلقى قبولكم، فلا بحث عن عمل يوم الأحد.

واتفقوا أن يلتقوا فى الصباح لينعموا بالجو الصحو المنتظر والتمشية الخلوية بلا هدف.

●●●●●

انفـــراج

استيقظ صباح الإثنين هادئ النفس قانعاً بما رتبه لأيامه القليلة القادمة، وكان يذكر أن عليه مغادرة بيت الشباب إلى مكان آخر لم يقرره بعد، لكنه لم يزعج نفسه بالتفكير والتدبير وإنما أعد حقيبته ليحملها إلى أمانات "سويس آير" حتى يفصل فى الأمر.

تناول فطوره الساعة السابعة ثم انتظر صاحبى الأمس اللذين وافقاه للذهاب إلى مكتب المزارع ومنه إلى مكتب شئون الطلبة بجامعة زيورخ. حضر أحدهما بعد قليل معتذراً بأنه حدد لنفسه وجهة أخرى، وحضر الآخر بعده عازما على صحبته، إنه الشاب الطيب الذى اقترح عليهم نزهة الأحد الرائعة، اسمه هشام.

سارا معاً نحو مكتب المزارع فبلغاه بعد جهد لصعوبة التعرف على عنوانه، صعدا إلى الطابق الرابع حيث أشارت اللافتة الموجودة فى مدخل البناية. تحدثا إلى الموظف الذى أجابهما باقتضاب

- هذا المكتب يختص بمزارع زيورخ فقط لذا فهو محدود التصرف لأنها - كما تعرفان - مدينة صناعية لا تجاورها مزارع كثيرة، لكننى سوف أعطيكما عنواناً لمكتب مزارع يختص بكل سويسرا منه تستدلان على احتياجات العمل وأماكنه ثم تتوجهان إليه.

شكراه ثم انطلقا إلى مكتب شئون الطلبة بالجامعة ليسجلا إسميهما فى

قائمة الطلاب الراغبين فى العمل فوجدا زحاماً شديداً وطوابير طويلة ممتدة من الطلبة المصريين وكأنهما فى إحدى جامعات مصر. الساعة العاشرة والنصف وكان "سالم" ينوى التواجد فى مصنع سابينا قبل الثانية عشرة وهو

ما يصعب تحقيقه إذا واصل الانتظار فقال لهشام

- وقوفى فى هذا الطابور لا يتيح لى مقابلة سابينا فى موعد مناسب لهدا عليك أن تواصل وحدك ونتقابل فى الثالثة ببيت الشباب لنتدبر ما سيكون.

قال هشام فى استسلام

- هذا أفضل بطبيعة الحال وسأحاول تسجيل اسمك أيضا إذا أمكن إلى اللقاء.

وصل سالم إلى المصنع المقصود قبل الثانية عشرة بربع ساعة، اقترب من الحارس وحياه ثم قال

- أود مقابلة "سابينا ليكنر" لأمر هام.

تذكره الرجل فوراً ولم يبد ارتياحه وأخذ يتحدث فى عصبية واضحة، ابتسم سالم وقال

- أرجو أن تعذرنى فأنا لا أعرف لها عنواناً آخر.

فتح له الحارس البوابة الكهربية مؤذناً له بالانتظار فى حجرة مكتبه حتى يستدعيها بالتليفون. بعد قليل أتت امرأة لم يرها من قبل، نظرت إليه فى دهشة قائلة

- لماذا تريد مقابلتى؟

أجابها بسرعة متمالكاً نفسه وهو ينظر إلى الحارس

- سألت عن سابينا ليكنز، ألم تحضر اليوم؟

تنبهت السيدة للخطأ الحادث ثم اعتذرت قائلة وهى تبتسم

- يبدو أنك نطقت الإسم بسرعة فخلط بينها وبينى فإسمى سابينا ليكنز، سابينا التى تعنيها موجودة لقد رأيتها اليوم سأرسلها لك. أرجو أن تعذرنى.

جاءت سابينا المقصودة فوراً وهى مرتبكة تصحبها سيدة أخرى، لكنها حين رأته بدا عليها الارتياح، يبدو أن حضوره لم يكن متوقعاً، قال لها بعد تحية الصباح

- لقد سبب حضورى إزعاجاً لكم، لكننى لا أعرف مكاناً آخر أو موعداً يناسبك وقد فقدت رقم تليفون منزلك.

تفكرت قليلاً ثم قالت

- لهذا لم أتلق مكالمتك مساء الجمعة كما اتفقنا؟

- نعم، تركت الورقة المكتوب فيها إسمك ورقم التليفون مع حارس مصنعكم حين جئت أسأل عنك يوم الخميس الماضى ونسيت أن أستردها منه.

- فى الحقيقة ظننا أنك قد وجدت عملاً فى مكان آخر خاصة حين إتصلت بالشركة التجارية وأفادنى المدير الذى التقيته أن طلب تعيينك لم يرحب به المدير العام.

تدخلت السيدة التى أتت بصحبتها قائلة

- فى الحقيقة شعرنا ببعض القلق لعدم اتصالك بنا

قالت سابينا بسرعة

- هذه أمى، فى ارتباكى نسيت أن أعرفك بها.

قال سالم متوجهًا بحديثه إلى السيدة

- إننى فى غاية الامتنان لما قدمته لى سابينا من مساعدة، حتى لو وجدت عملاً فى مكان آخر كان لابد من حضورى إليكم لتقديم شكرى وعرفانى.

قالت سابينا وقد تنبهت لمقصده

- إذن فأنت ترغب فى الاتصال بمقاول الحدائق؟

- إن كان لا يزال ممكناً.

- أظنه كذلك، لكنك ستذهب إليه بمفردك لأن رئيسى قرر عدم السماح لى بالخروج من المصنع فى منتصف النهار بعد أن تأخرت فى المرة السابقة.. سوف أحضر لك العنوان.

استوقفتها أمها وتبادلت معها حديثاً سريعاً بالألمانية قالت له بعده

- تقترح أمى أن تصحبنا بسيارتها إلى مكتب المقاول فى الساعة الثانية عشرة لننهى المسألة ونعود بسرعة.

- وماذا عن مديرك؟

- إنه رجل ثقيل الظل لا أحبه، لكنه رئيسى ! سوف تستأذنه أمى ولا أظنه يرفض فى هذه الحالة.

بعد فترة قصيرة اتخذوا طريقهم إلى مكتب المقاول حيث قابلوا المدير وتبادلوا معه الحديث لدقائق قليلة ثم حرر له عقد العمل ووقع عليه طالباً منه التوجه إلى مركز البوليس للحصول على تأشيرة العمل. أثناء العودة إلى المصنع فسرت له سابينا بنود العقد.

- الأجر ستة فرنكات فى الساعة والعمل عشر ساعات فى اليوم عدا يومى السبت والأحد فهما عطلة نهاية الأسبوع كما تعرف، ستقيم فى استراحة العمال فى "بريكون" مقابل أربعة وثمانين فرنكاً فى الشهر، بداية العمل من الغد بعد انتهاءك من اجراءات البوليس بالطبع.

أضافت والأم تقترب بسيارتها من المصنع

- سوف تأتى لمقابلتنا عند باب المصنع فى الخامسة مساء اليوم لنصحبك إلى مكان إقامتك فى "بريكون".

سألته وهم ينزلون من السيارة

- كيف ستذهب إلى مركز البوليس فى زيورخ؟

أجابها

- كما أفعل دائمًا حين آتى إليك، أستقل الترولى ثم الترام.

- هذا طريق طويل ومكلف، يمكن أن تستقل القطار الفرعى من محطة "شليرين" إلى المحطة الرئيسية "زيورخ" فى عشر دقائق بأجر زهيد.

وصحبته إلى محطة "شليرين" الواقعة إلى جوار مصنعها وهو فى دهشة لعدم ملاحظته لها. تخيرت له موعداً مناسباً لقطار الذهاب وقطار العودة من جداول القطارات الموزعة فى أنحاء المحطة ثم تركته عائدة إلى المصنع.

استقل القطار الذى أوصله إلى زيورخ حوالى الساعة الثانية، توجه إلى قسم الشرطة كى يحصل على تأشيرة العمل فوصل إلى هناك فى دقائق قليلة حيث وجد نفراً قليلاً اثنين من المصريين وبعض الأجانب من الطليان والأسبان واليوغسلاف، وقف ينتظر دوره، هناك إلى جواره صف آخر طويل معظمه من الطلبة المصريين الوافدين الجدد الذين أتوا للحصول على تصريح بالبحث عن عمل.

حصل على تأشيرة العمل فى جواز سفره مثبتًا فيها إسم المقاول ورقم العقد المبرم الذى وثقه البوليس واحتفظ بنسخة منه للرجوع عليها فى حالة حدوث نزاع. غادر "سالم" قسم البوليس مفعمًا بالرضى والطمأنينة لأيامه القادمة ثم تذكر الوعد بمقابلة هشام فى الثالثة ببيت الشباب، شعر أن الوقت أصبح حرجاً لارتباطه بموعد الخامسة لكنه أصر أن يفى بوعده عازماً أن يتوجه إلى بيت الشباب أولاً ثم يعود بعد ذلك ليتخذ طريقه إلى سابينا. وفيما هو يعبر الشارع ليستقل الترام فوجئ بهشام يعبره من الناحية المقابلة فكانت صدفة رائعة. سأله عما فعله فى مكتب المزارع الرئيسى فلم يبد حماساً بالوعود التى سمعها من الموظفة هناك وإن كان قد أفلح فى تسجيل إسمه بمكتب الجامعة.

أخبره سالم بما أنجزته له سابينا وأمها ففرح وهنأه وتمنى له التوفيق ثم أصرّ على اصطحابه إلى محطة القطار بعد أن عرجا على استراحة "سويس أير" لإحضار حقيبة سالم من الأمانات. على رصيف المحطة تعانقا عناق الأخوة برصيد من المعرفة لم يتجاوز فى حساب الزمن أياماً معدودة لكنه فى حساب الإنسانية يتخطى كل التحفظات.

كانت ابتسامتها تسبق نظرتها وهى تلحظه واقفاً فى انتظارهم على باب المصنع والحقيبة الصغيرة فى يده، قدمت له أباها الذى حياه معتذراً بعدم معرفته الإنجليزية، عقبت الأم ضاحكة

- ألمانيتك أفضل من إنجليزيته بكل تأكيد.

تقدموا نحو السيارة وسابينا تنظر إلى حقيبته وتتساءل فى دهشة

- هل أتيت من مصر بهذه الحقيبة الصغيرة؟

أجابها وهو يدلف إلى السيارة فى المقعد الخلفى إلى جوارها كما طلبت منه الأم

- فيها ما أحتاجه وهو ليس بكثير.

قالت الأم وهى تعتدل فى جلستها إلى جوار زوجها

- سنذهب أولا إلى بيتنا لنتناول طعام الغداء ثم نصحبك بعد ذلك إلى مقر إقامتك.

فى أثناء الطريق أعطته سابينا بعض الأوراق أعدتها على الآلة الكاتبة فيها عنوان عمله وعنوان إقامته وعنوان بيتها ومصنعها وأرقام التليفونات التى يمكنه الاتصال بها. مضت السيارة تنهب الطريق نحو قريتهم "مورى" فى ارتفاع وانخفاض ومنحنيات حادة عجيبة لم يعهدها من قبل، الأشجار تصطف فى كثافة على الجانبين فى كبرياء واستغناء.

بعد نصف ساعة وصلوا إلى بيتهم، شقة صغيرة أنيقة فى الدور الثانى بها حجرتى نوم وصالة للمعيشة. استأذنت الأم مسرعة إلى المطبخ لتعد الطعام والأب إلى حجرته لراحة قصيرة وجلس سالم مع سابينا فى صالة

المعيشة يتسامران. قدمت له عصفورها الملون بعد أن أطلقته من قفصه ثم استدعته فوق أصبعها وهى تداعبه وتحنو عليه، وما أن تناوله سالم وبدأ يداعبه مثلها حتى قفز من فوق أصبعه عائدا إليها متخيراً كتفها محطة له وسط ضحكها وامتداحها لفطنته ثم انهمكا فى لعب الشطرنج.

بعد الطعام جلسوا يتبادلون الحديث فى صفاء وود كأنه صديق قديم. سألوه عن أسرته فى مصر ووالديه وإخوته، سألته الأم إن كانت والدته تعمل فأجابها

- أمى لا تعمل لأنها رزقت بأسرة كبيرة، لكن هناك نساء كثيرات يعملن فى مصر.

ردت الأم عليه

- أنا أيضا توقفت عن العمل حين كانت سابينا صغيرة، عمل الأم الأساسى تربية أطفالها.

تناول الحديث الأحوال المعيشية فى مصر، أصناف الطعام المشهورة، أذواق الناس وملابسهم الشعبية المتوارثة، كما تحدثوا معه فى السياسة والحروب التى خاضتها مصر وأثر ذلك على تقدمها الاقتصادى، لكنهم تفهموا العلاقة بين ماضى الشعوب وحاضرها وضرورة احترام التاريخ. علقت الأم على ذلك قائلة

- من الطبيعى أن يكون للتاريخ هذه القيمة الهائلة فى بلد كمصر، وأن تتأثر به ثقافة شعبها، فهو أعرق شعب فى التاريخ الإنسانى.

اقتربت الساعة من الثامنة فسأل "سابينا"

- هل من المناسب أن ننطلق الآن إلى "بريكون"؟

فهمّت الأم همسه لإبنتها وقالت فى ذكاء

- سوف نستعد فى خمس دقائق

قالت له سابينا أثناء الطريق

- والدىّ سيغادران سويسرا فى عطلة نهاية الأسبوع القادمة لقضاء أجازتهما السنوية لمدة أسبوعين فى إيطاليا وسيستقلان السيارة، وحيث أننى لا أملك سيارة فلن أتمكن من رؤيتك إلا بعد عودتهما المنتظرة فى الثانى من أغسطس، وسوف نتخدث تليفونياً لترتيب موعد مقابلتنا التالية.

قالت الأم وكانت تتابع ابنتها باهتمام

- بالطبع يمكن لسابينا أن تحضر إليك فى أى وقت إذا دعت الضرورة وهى ستتواجد بالبيت دائماً إذا شئت الاتصال بها. بعد عودتنا سنصحبك إلى رحلة بين جبال سويسرا.

وصلت السيارة إلى "بريكون" وهى قرية صغيرة تبعد عن زيورخ حوالى عشرين كيلو متراً.

وقفوا أمام البيت المرتقب. رنت الأم جرس الباب فُفتح. دخلت لتحدث من بالبيت.

وجدت جماعة من اليوغسلاف لم يمكنها التفاهم معهم لكن مجموعة أخرى من الطليان يسكنون الطابق الأعلى نودى على أحدهم فهبط للحديث معها ومعرفة ما تريد. أخبرته بأن "سالم" أحد العمال الجدد وأنه سيقيم معهم بالبيت حسب عقده مع المقاول فرحبوا به وبدأوا يعدون له مكانه ويقدمون له العون.

قالت سابينا بعد حديثها مع إيطالى آخر حركة الفضول للنزول إليهم

- سوف تأتى سيارة العمل لتنقلك فى السادسة والنصف صباحاً فكن حذراً واستيقظ مبكراً. لا تنس أن بيننا موعداً يوم الجمعة ٢ أغسطس!

قال مؤكداً

- لن أنسى يا "سابينا".

وشكرهم جميعًا ثم صحب "سابينا" ووالديها إلى السيارة مودعاً وملوحاً حتى غابوا فى الطريق.. ولما استلقى على فراشه تذكر أنها ليلته الأولى فى سويسرا التى ينعم فيها بطمأنينة النفس.

●●●●●

هل هى مفاجأة؟

أفاق سالم من غفوته ليجد نفسه فى سيارة نصف نقل متوجهة به إلى العمل. جلس إلى جواره إثنان من اليوغسلاف وإلى جوار قائد السيارة إثنان من الطليان، ملاحظ هذه المجموعة من العمال هو قائد السيارة، شاب سويسرى عرّفه بنفسه فى الصباح اسمه "إرنست" ذو ملامح وسيمة وظرف ملحوظ.

منذ استيقظ فى الصباح الباكر مستقبلاً يومه الأول فى عمل لا يعرف عنه شيئا كان شعور التحفز للمواجهة يتملكه وينبه فيه الأعصاب قبل العضلات، مستدعياً قوة الإرادة قبل لياقة البدن.

وصلوا إلى الحديقة فلاحظ أنها فى مرحلة الاكتمال أو هكذا خيل له، وشرح له إرنست العمل المطلوب منه اليوم، أن يحفر حفرتين عمق كل منهما متراً وقطرها ثلاثة أمتار.

لم يتوانى سالم فى بدء العمل بنشاط وإصرار متجاهلاً فى ذاته أى شعور بالتعب والرغبة فى التراخى، ولم يتوقف إلا حين أقبل عليه إرنست ليخطره بموعد الغداء.

ومع نهاية اليوم فى السادسة مساءً وجد نفسه قد أنجز المطلوب منه والمشرف مبدياً رضاه، تنبه سالم إلى أن المشرف كلفه بعمل يعرف تماما مقدار ما يحتاجه من زمن لإنجازه لكى يختبر مقدرته على الآداء، وتركه

طوال اليوم لنفسه حتى يتحقق من جديته دون رقيب، لو أنه استجاب لرغبة بدنه فى التوقف للراحة ولو نصف ساعة لما تمكن من الانتهاء مما كلف به ولأمست تلك البداية علامة ضعف وفشل.

لكنه لم يدرك حقيقة ما بذله من جهد عضلى غير معتاد عليه إلا بعد عودته إلى المنزل حيث طغى عليه الشعور بالإجهاد فاستسلم للنوم والساعة لم تتعد الثامنة مساءً.

فى اليوم التالى أشار إرنست إلى عدد من الإسطوانات الأسمنتية المفرغة التى تملأ بالظلط بعد دفنها بالأرض لتستقبل الماء من صنبور يعلوها لينتشر من خلالها فى أحواض الزهور، وطلب منه أن يعد الحفر المطلوبة لتلك الإسطوانات لكى تدفن فى الأحواض التى حددها له. كان عملاً مضنياً أن يفتت الطين بالفأس ثم يرفعه بالجاروف حتى يصل إلى العمق المطلوب فى مساحة ضيقة تنهار حافتها مع أتفه خطأ. استهلكت الحفرة ساعتين من الكد دون توقف حتى تمكن من دفن الإسطوانات المطلوبة فى الأحواض المحددة مع نهاية يوم العمل.

فى يومه الثانى أمسى أفضل حالاً من يومه الأول، بدأت عضلاته تلين بعد تصلب وتستجيب لمصاعب العمل، فلم يشعر بنفس الإرهاق الذى سيطر عليه فى أمسه وبدأ يفكر فيما سيأكله وهو مستلقى فوق سريره يلتقط أنفاسه.

وفيما هو يغافل نفسه مستسلماً لراحة الجسد إذ به ينتبه لطرق على الباب الخارجى. لم يشك فى أن الطارق أحد سكان البيت أو من يعرفونهم فلا أحد فى الدنيا يعرف أين هو سوى سابينا وأسرته وطبعاً صاحب العمل،

وسابينا واعدته على موعد بعيد. حاول أن يستعيد هدوء باله من جديد إلا أن أحد اليوغسلاف اسمه عزت جاءه يخطره بأن بالباب من يريده ! أسرع نحو الباب يغلبه الفضول ليجد سابينا وأمها.

ابتدرته قائلة

- أتينا لنطمئن على أحوالك.

ابتسم فى امتنان وآثار الإجهاد بادية فى وجهه وقال

- العمل شاق يتطلب قوة بدنية وتحملاً، لكننى لن أخيب ظنك.

- أنا متأكدة من ذلك، هل تناولت عشاءك؟

- كنت أستريح قليلاً قبل التفكير فى العشاء.

- رفاقك هنا يقولون لنا أنك لا تأكل كالمعتاد.

- بالطبع آكل، كيف تصدقينهم؟ هل أبدو أمامك مضرباً عن الطعام؟

ابتسمت ابتسامتها المداعبة وسألته

- إذن أين وماذا أكلت اليوم؟

- فى العمل أكلت أكلاً خفيفاً، ولازلت بصدد العشاء.

تدخلت الأم فى الحوار قائلة

- توقعنا أن تتناول عشاءك فى المطعم المجاور فحضرنا فى الخامسة وانتظرناك هناك حتى السادسة فلم تأت. تناولنا نحن عشاءنا وحضرنا هنا نستطلع أمرك.

قال سالم ونبرة الحنان فى هذه السيدة تهز مشاعره

- العمل ينتهى فى السادسة، وقد وصلنا البيت منذ نصف ساعة فقط كما أننى لم أتعرف على معالم تلك القرية بعد. يؤسفنى حقًا أن تضيع منى فرصة لقاءكما وأنتما هكذا فى الجوار.

قالت سابينا ضاحكة

- لازالت الفرصة قائمة يا صديقى سوف ننتظرك على ناصية الشارع حتى تغير ملابسك.

بعد دقائق عادتا إلى المطعم القريب بصحبته وجلس بينهما إلى إحدى الموائد المصفوفة المزينة بباقات الورود وطلب عشاءه من الإسبكيتى وقطع اللحم المفروم، لكن شعوره الطاغى بالسعادة لحضورهما للسؤال عنه أنساه مذاق الطعام الجيد.

أشارت سابينا إلى يده وقالت لأمها

- أنظرى إلى هذا التشقق فى يده ينزف.

قال سالم

- هذا نتيجة القبض على الفأس والجاروف ساعات طويلة لكنه سيلتئم سريعاً وتعود اليد أقوى مما كانت.

أسرعت الأم بفتح حقيبتها واستخرجت منها علبة صغيرة قدمتها له قائلة

- هذا "كريم" للجلد سوف يلطفه، استعمله دائماً.

تناوله من يدها شاكراً، ثم سألته سابينا

- هل معك ما يكفيك من نقود حتى تحصل على راتبك؟ يمكننى أن أقرضك.

أجابها

- معى ما يكفينى، وقد عرض علىّ المشرف نفس العرض هذا الصباح وشكرته أيضا.

قالت الأم وقد لاحظت انتهاءه من الطعام

- الآن وقد اطمأننا عليك سنتركك لتعود إلى بيتك وتستريح. أيضا والد سابينا يلعب التنس فى النادى وهو فى انتظارنا لنعود إلى منزلنا معاً، فهيا بنا.

سار معهما إلى السيارة مودعاً والأم تؤكد عليه

- لا تنس موعدنا فى الثانى من أغسطس، لو احتجت لمساعدة اتصل بسابينا.

التقت عيناه بعينى الفتاة الجميلة وتبادلا الابتسام ثم اتخذ طريقه إلى المنزل فى خطى هادئة، لقد أنسته هذه المقابلة تعب النهار. سأله عزت مداعباً وهو يفتح له الباب

- ألا تحب أن تشاركنا طعام العشاء؟

بعد مضى حوالى نصف ساعة سمع رنين الجرس وأصوات غير مألوفة فلم يلق بالاً وقد بدأ يخلد للنوم، لكنه فوجئ بعزت يطلب منه الحضور لمقابلة بعض الأصدقاء.. أى أصدقاء؟

ثلاثة من الطلبة المصريين صفوت وميشيل ومراد من كلية الهندسة جامعة أسيوط، تعاقدوا على العمل مع مكتب المقاول بدءاً من الغد وحضروا الليلة للمبيت والإقامة مثله ومثلهم جميعاً. رحب بهم وأبدى سروره بمقدمهم جميعاً قائلا

- لم أتصور أن يصبح لى زملاء مصريين فى هذا المكان وبتلك السرعة.

قال صفوت:

- دهشنا نحن أيضاً حين أخبرنا مدير المكتب بوجودك بينهم، لقد عثرنا على مكتب بالمر لمقاولات الحدائق بالصدفة البحتة. من كان يتصور أن جراجًا به بعض معدات الحدائق توجد فيه فرصة عمل بعد أن أعيانا البحث فى المصانع والشركات؟

أضاف مراد:

- اقتربنا منه وكان الحارس على وشك إغلاقه فسألناه هل يوجد عمل لديكم للطلبة فى أجازة الصيف فأومأ بالإيجاب واصطحبنا إلى المكتب حيث أبرمنا العقود.

سأله ميشيل ببعض القلق وكان شابًا نحيلاً

- هل العمل صعب؟ إننى لم أجرب العمل من قبل.

رد عليه صفوت وبدا أنه أكثرهم خبرة

- قلت لك سوف تعتاد العمل مهما كان صعبًا ، لقد جربت ذلك من قبل.

قال سالم وهو يتأمل يديه

-ما قاله صفوت صحيحًا، سوف أترككم لتستريحوا ونجتمع غداً فى الصباح الباكر على خير.

تم توزيع العمال الثلاثة الجدد واحداً مع مجموعة سالم وهو صفوت والآخرين معًا فى مجموعة أخرى.

انطلق إرنست بمجموعته إلى قرية بعيدة إسمها «أرنى» حيث يبدأ مشروعًا جديداً وهو حديقة تحيط مجمعًا من المساكن عليهم أن يعيدوا تخطيطها بما فيها من أحواض ومنشآت خاصة تضم ألعاب الأطفال من مراجيح وزحاليق وغيرها وبعد انتهاء نهار العمل تجمعوا فى إحدى المقاهى التى اعتاد عمال بالمر أن يتقابلوا فيها للحديث والتسامر كلما كان ذلك متاحًا لصحو الجو أو القرب من موقع العمل، قال صفوت لسالم وهو يجلس إلى جواره والزميلان الآخران قادمان نحوهما والإجهاد واضح على هيأتهما.

- لابد أن أخبرهما بما قاله إرنست ليأخذا حذرهما.

قال سالم:

- ألا يمكن إرجاء ذلك حتى تعود للبيت وتنفرد معهما؟

أصر صفوت قائلاً:

- هذا ما أريد تجنبه، أمامك لأنك سمعته معى، وإذا لم يقنعهما شهادتك يمكن الإستشهاد بإرنست.

تساءل مراد وقد وصل سمعه بعض الحديث.

- ماذا هنالك يا صفوت؟

أجابه صفوت:

- أخبرنى أولاً كيف كان يومكما؟

قال ميشيل:

- أظننا بذلنا جهداً يفوق ما تصورناه فى أنفسنا، إنه عمل بدنى شاق جداً.

قال صفوت دون مواربة

- أخبرنا إرنست ملاحظ مجموعتنا أن المهندس غير راضٍ عن أدائكما، وإذا لم تبذلا جهداً مرضيًا سوف يطردكما.

ونظر إلى سالم مستشهداً، فقال:

- المسألة ليست ما نظن أنفسنا قد بذلناه وإنما هل حققنا ما هو منتظر منا، الحكم فى ذلك للملاحظين الذين لا يعنيهم إن كنا طلبة أو غير ذلك وإنما يعنيهم إنجاز العمل فى الوقت المحدد مهما كانت الأسباب، لأن ذلك يترجم فى النهاية إلى مال.

بدا عليهما الإحباط المشوب بالإنفعال، سالم يعرف أن المرارة فى بعض الأحيان لا يمكن تجنبها ، فأضاف:

- نحن نعامل هنا كعمال عاديين ونتقاضى أجراً عن ذلك، لا فائدة من تجنب هذا الواقع بما يحمله من أعباء لنا.

قال مراد وقد بدأ يتفهم الموقف:

- سنبذل أقصى ما نستطيع عسى أن يرضيهم.

قال صفوت منبهًا:

- لا تنسوا أننا مجموعة من الطلبة المصريين نعمل فى مكان واحد، سوف يؤثر ما يفعله أحدنا على الآخرين شئنا أم أبينا.

فى اليوم التالى أعاد المهندس توزيع مراد وميشيل مع مشرف آخر تصورا أنه أقل صرامة من زميله بالأمس وأكثر تفهمًا، لم يخبرهما صفوت بأن الانطباع السائد عن أدائهما بسلبيته قد شاع بين الجميع.

فى بداية الأسبوع - يوم الإثنين - طلب منهما المهندس التوجه إلى المكتب.. ولما عاد سالم فى نهاية اليوم وجدهما يعدان حقائبهما للرحيل فقد أنهى عقداهما. عرف سالم وصفوت أن السبب الذى أصرّ من أجله المهندس على طردهما هو أنه رآهما بنفسه يدفعان بعربة اليد «الكارتة» معًا وبنصف حمولتها، أحدهما يمسك بيد والآخر يمسك بالأخرى فأيقن أنه لا فائدة ترجى منهما.

وأصبح هذا الطرد السريع سببًا لانبعاث الخوف والحيطة فى نفسى سالم وصفوت، فلا بديل يرجى إلا العمل الجاد المتصل بلا هوادة، عمل يفى بالأهداف المرجوة منه أو الخسران.

أما سبب الخشية فى نفس سالم فكان أعمق مما بدا له، كان يخشى أن يجرب الفشل فى عمل كلف به كيفما كان هذا العمل ومهما تطلب من تضحية، فهو أمر لا تقرّه نفسه وإن تحايلت وهو أمر لم يحدث من قبل.

●●●●●

لحظات شدة

مضت أيام على حادثة الطرد وسالم وصفوت لا تكلّ لهما عزيمة ولا تفتر قوة، كما أنهما استمرا معًا فى مجموعة إرنست لم يفترقا، وفى موقع تلك الحديقة بقرية «أرنى» وقفا يتحدثان لمدة دقيقة فإذا بإرنست مقبلاً عليهما. نظر إلى ما أنجزاه من عمل فاطمأن ثم قال لهما.

- تحدثت مع المدير بشأنكما مؤكداً أنكما تعملان بجد طالبًا منه أن يزيد أجركما إلى سبعة فرنكات بدلاً من ستة، وقد وعد بإجابة طلبى إذا تأكد من ذلك بنفسه، ولا أعرف كيف سيفعل ذلك.

ثم ضحك ومضى. شعرا بالطمأنينة بعض الشئ لما سمعاه من إرنست وتأكدا أنه راض عن عملهما معه وتمنيا ما وعدهما به. ومع ازدياد رصيد الطمأنينة فى نفس سالم بدأ يحصى الأيام المتبقية حتى لقاء مع سابينا، وأخذ يتنبه لشعور غريب ينمو فى نفسه نحوها، وكلما ازداد أمنًا وهدوءاً كلما قوى هذا الشعور وازداد إلحاحًا مما دفعه للإتصال بها والحديث إليها من أحد أكشاك التليفونات المجاورة لمنزله. آتاه صوتها مع الرنين الثانى لتليفون منزلها فحياها قائلاً:

- مساء الخير «سابينا»، سالم يحدثك.

- أهلاً بك، لم أنس صوتك ياصديقى، كيف حالك؟

- الحمد لله أنا بخير، كيف تمضى أيامك فى غياب والديك؟

- مملة بعض الشيء لكنهما يداومان الاتصال بى، لا تنس أن معى «هانس» - عصفورى الصغير يؤنسنى.

- ألا يزال مشاغبًا ؟

ضحكت وأجابته

- نعم مثل صاحبته، هل العمل لا يزال مجهداً أم اعتدت عليه الآن؟ ماذا عن يديك هل التئمت الجروح فيهما ؟

- الفضل للدهان الذى أعطته لى أمك، إنها طيبة جداً، أنت محظوظة بها.

- سوف يسعدها أن أخبرها بحديثك فقد استفسرت عنك إن كنت اتصلت بى، ودائمًا تؤكد علىَ ألا أغادر البيت إلا للضرورة فربما تحاول الاتصال.

- الآن أشعر بالذنب لأنى لم أتصل بك من قبل.

- فى الحقيقة انتظرت منك مكالمة.

- لم أشأ إزعاجك فربما تكونين نائمة، لكننى اليوم تجاهلت هذا الخوف، لا تسأليني عن السبب.

- حسنًا أنك فعلت.

- إذن أتركك الآن لأحلامك السعيدة، لقد سررت حقًا بالحديث إليك.

- أنا أيضًا وسنلتقى قريبًا.

عاد سالم إلى البيت وصعد إلى الدور الثانى حيث انتقل لمشاركة صفوت حجرته بعد رحيل زميليه وكان ذلك بدعوة منه. قال صفوت وهو يلحظ تغيراً واضحًا فى ملامح رفيقه.

- ماتلك الوصفة السحرية التى رسمت السعادة على وجهك؟

قال سالم مبتسمًا:

- أنت قارئ ماهر للوجوه.. لكنك تعرف من قبل أين كنت.

- لابد أنك حدثتها.

- نعم، كان من الواجب أن أفعل.

- لا تشغل نفسك بالواجب.. استجب لمشاعرك، لابد أن الفتاة تحبك لتفعل كل ذلك.

- لا تبالغ ياصفوت، العقل هنا يسبق العواطف، كما أن الأحوال لم تستقر بنا بعد.

- لا تقلق، إرنست يساندنا وهو معجب بك خاصة.

- نحن نؤدى عملنا كما هو منتظر، هذا مقياس الإعجاب، ما عدا ذلك فهو ألفة ومودة بين الناس، لماذا العداء والعقل يحل المشاكل؟

تنهد صاحبه قائلاً:

- ليست للعقل هذه المكانة فى صعيد مصر.

- سوف يأتى يوم يتحقق فيه هذا الأمل.

- لا أظن العقل سيتغلب على العادة والموروث، الأخذ بالثأر ليس له بديل بين العائلات هناك وغير ذلك من عادات اجتماعية طاغية.

- هذا لا يخص الصعيد فقط، فختان البنات مثلاً ينتشر فى كل الريف المصرى وبعض الحضر، لكن التعليم سيحد منه حتى يندثر. المشكلة أن الناس تربط بين تلك العادات ومفهوم الشرف. ماذا يعنى الشرف إذا ارتبط بإحساس مادى زائف؟

- هناك مصريون يعيشون فى أمريكا حاصلون على شهادات الدكتوراه يعودون لقراهم ليتزوجوا كى يضمنوا بكورة زوجاتهم وهو أمر يصعب التحقق منه هناك. فماذا أفادهم التعليم؟

- إذا لم يطور التعليم من ثقافتك وتقييمك للأمور فلا قيمة له فى نظرتك للحياة، وهذا ما أقصده من جدوى التعليم.

سكت صفوت طويلاً قبل أن يسأل محدثه.

- إذن فأنت تقبل الزواج من فتاة غربية؟

أجابه سالم بسرعة

- من المؤكد أننى لن أرفضها لعدم كونها بكراً.

ابتسم صفوت وهو يقول

- يبدو أنك تفكر فى الأمر دون أن تدرى!

- العقل يسبق العاطفة هذا ما أتمسك به.

لكن الغد حمل لهما تحديًا لم يكن فى حسبان العقل بأى حال. بدأ اليوم

قائمًا منذ الصباح، إذ أطلت السماء بسحب سوداء كاظمة وأنذرت بيوم ثقيل، فبعد أن بدأ العمل ومضى به الزمن ثقيلاً لمدة ساعتين بدأت السماء تمطر فى وحشية وقسوة. هرع العمال يستظلون ويحتمون من المطر المنهمر تحت أسقف الشرفات القريبة، مضت ساعة وساعتان دون أن تبدو بادرة توقف، الملابس التى يرتديها سالم تلائم العمل الصيفى المنتظر فبدأ يشعر بالبرد وكأنه يواجه زمهرير الشتاء، حضر إرنست فى سيارة العمل النصف نقل يسأل الجميع إن كانوا يرغبون فى العودة إلى البيت مكتفين بنصف يوم عمل أم يفضلون الاستمرار. فهم سالم وصفوت أن نصف يوم عمل يعنى نصف أجر يوم، أى ضياع خمس ساعات بثلاثين فرنكًا فقررا الاستمرار ومعهما عزت اليوغسلافى الوحيد فى المجموعة، أما الإثنان الطليان فقررا العودة للبيت، بدا أن ذلك لم يعجب إرنست فقد هز رأسه مستسلمًا أو ربما متوعداً! أمر عزت بخلط ثلاثة جوالات أسمنت مع ثلاثة كارتات زلط لحين عودته ثم انطلق بالطليان إلى البيت وعاد فى لمح البصر ليدفع بهم إلى إنهاء عمل مقدر فى يومين خلال ما تبقى من ساعات اليوم العصيب. كانوا يصبون الأساسات لكل لعب الأطفال فى الحديقة، كلما انتهت صبة أمر عزت بتجهيز غيرها، يأتى سالم بالكارتة فارغة فيملأها عزت بالخلطة فى أقل من ثلاث دقائق ليندفع بها فى قوة تحت الأمطار المنهمرة إلى الموقع المحدد حيث ينتظره إرنست ليقوم بإفراغها، وصفوت يتابعه بكارتة ثانية وهكذا، وهو جزء من العمل تؤديه المجموعة كلها فى الأيام العادية ويستغرق يومًا بأكمله.

الجهد المبذول يبدو خارقًا لم يتصور سالم أنه قادر عليه، وطاف بخياله أنه فى لحظات الشدة ينكشف للإنسان مواطن القوة والضعف فى ذاته وتذكر

وعده لسابينا ألا يخيب ظنها وتأكيدها ثقتها فيه. العرق ينهمر من جسده فى غزارة كالمطر المنهمر فوق رأسه ليختلط به فى تحدٍ وإصرار.

اقتربت الساعة من الثالثة ثم الرابعة فالخامسة والمشهد لا يتغير كأنه جزء من مأساة إغريقية حتى شعر سالم أن بدنه قد تحول إلى آلة تعمل دون رغبة فى توقف وأن عقله قد اعتزل ميدان الفعل واكتفى بالمراقبة. كلما التقى سالم بصفوت فى غدوهما ورواحهما سأله كم تبقى من زمن فيجيبه الآخر وهو يلهث أن زمن اليوم ليس للقياس، لكن للزمن رغم كل شىء مقياسًا ثابتًا مهما تكن أحكام البشر من المستبطئين أو المتعجلين، فقد انتهى اليوم و تمكنوا من إنهاء العمل المطلوب.

قال صفوت لسالم وهما يستعدان للنوم بعد هذا النهار العصيب:

- هل تظن أن رغبتنا فى الاستمرار فى العمل اليوم قد أثارت غيظ إرنست وجعلته يقسو علينا ؟

أجابه سالم وقبح اليوم لا يزال ماثلاً فى نفسه.

- إنه شخص عنيد وربما أراد أن يلقننا درسًا.

- إذن قد يؤثر هذا على مساندته لنا فى زيادة الأجر؟

- إننا لم نتهاون فى أداء ما كلفنا به، بل على العكس قمنا به فى ظروف صعبة وغير عادية، بصراحة لن أكرر هذه التجربة فى المستقبل فمرة واحدة تكفى.

- لا أكتمك أن نفسى راودتنى أن ألقى بالكارتة غير عابئ بأية عاقبة، لولا أنى رأيتك صامداً.

- لم يكن مقبولاً بأى حال أن نقرر العمل ثم ننكص عن تأديته مهما كانت الصعاب، سوف نصبح إذن مدعاة للسخرية والتهكم من الآخرين، لو وجدنا مبرراً لفعلنا ذلك من أنفسنا، ولم نجد!

قال صفوت بعد لحظة صمت

- ما رأيك لوشرحنا له وجهة نظرنا بأننا مضطران للعمل فى هذه الظروف ولم نقصدا اعتراضه؟ على أن تقوم أنت بذلك فهو يميل للتحدث إليك.

قال سالم بعد تفكير

- أظن من حقه علينا أن نفسر له مقصدنا طالما أنه يساندنا، سأحاول ذلك فى الصباح.

استغرق سالم تلك الليلة فى نوم عميق متصل لم يجربه منذ مقدمه وليس من عادته فى موطنه، يبدو أن ما بذله البدن من جهد وما ساندته النفس من إصرار كان أيضًا نادراً لم يجربه من قبل. استغرقته أيضًا الأحلام فشاهد نفسه يسند بيديه سوراً عاليًا يوشك أن ينهار، الحمل ثقيل وقواه توشك أن تخور وينقض عليه السور لولا أنه ظل يقاوم الرغبة الدفينة فى الاستسلام ويحرر عقله من منطقه المخادع حتى تحول السور فجأة إلى حديقة تنتشر فيها الورود فى تنسيق بديع وطفلة تعتلى إحدى المراجيح تلوح له من بعيد ثم تختفى.

فى الصباح جلس سالم إلى جوار إرنست فى السيارة متوجهين إلى موقع العمل، وبعد أن حياه تحية الصباح قال له:

- بالأمس حين اخترنا استمرار العمل تحت وطأة المطر لم نكن سعداء

باختيارنا لكننا كنا مضطرين. نحن نعتمد على المال الذى نتكسبه فى قضاء العطلة الصيفية فى سويسرا، ونقتصد جزءاً منه لننفقه أيام الدراسة. أنت تعرف أننا طلبة فى كلية الهندسة وهذا ليس عملاً دائمًا لنا ويسعدنا بعد يوم عمل شاق معًا أن تتأكد صداقتنا التى نأمل أن تستمر فى المستقبل.

رد عليه إرنست قائلاً

- أشكرك على هذا الإيضاح ياسالم، لكننى بعمل الأمس تأكدت تماماً من جديتكما ويمكننى أن أقدمه برهانًا للآخرين فلا تقلق، لقد فهمت مقصدك.

وغمز له بعينه كما يفعل حين يكتم سراً.

فى يوم الجمعة ٢٦ يولية حضر مدير المكتب إلى الموقع يحمل لكل عامل من العمال مظروفًا به أجر ما عمل من ساعات خلال الشهر. فتح سالم مظروفه واستخرج منه عدة أوراق، الشهادة التى استصدرها من السفارة المصرية ردت إليه، بطاقة التأمين الصحى التى استخرجها المقاول من أجله تطبيقًا للقانون السويسرى، وخطابًا بالإنجليزية تابعت عيناه سطوره فى لهفة وهى تمضي:

عزيزى:

لقد سررت بشهادة رئيسك بأنك عامل نشط ومجد، لهذا قررت أن أرفع راتبك المتفق عليه فى عقدك معنا إلى سبعة فرنكات بدلاً من ستة، وتأكيداً لاعترافنا وتقديرنا للمجهود الذى بذلته قررت أيضًا إعفاءك من أجر السكن وتكاليف نظافة البيت التى تبلغ مائة وخمسة وعشرين فرنكًا فى الشهر متمنيًا لك المزيد من التوفيق.

كان الخطاب موقعًا بصاحب العمل المقاول «بالمر».

تأكد سالم أن صفوت حصل على نفس الزيادة فهنأه وتوجها إلى إرنست بالشكر وكان يراقبه سعيداً بالوفاء بما وعدهما به وهو يرى علامات الفرحة والرضى على وجهيهما. فى نهاية اليوم حضر إرنست إليهم مرتديًا ملابس أنيقة مستقلاً سيارته الخاصة الحمراء الجميلة وطلب منهم جميعًا أن يركبوا غير عابئ بإتساخ ملابسهم وأحذيتهم بالطين والتراب وتوجه بهم إلى المقهى المعتاد. سأله صفوت أن يمرا بالبيت ليغيروا ملابسهم فأجابه بأن ذلك لا يهم فهم عائدون من العمل.

توافد على المقهى جميع الزملاء الآخرين فى مجموعات العمل الأخرى ومعهم المشرفون من أمثال إرنست مصطحبين صديقاتهم. استمر السمر والضحك لما بعد العاشرة مساءً.

كان إرنست قد أعلن للجميع أن اجتماع الليلة للاحتفال بانضمام سالم وصفوت إليهم ونجاحه فى إقناع المدير بزيادة راتبيهما، وطلب من النادل إحضار زجاجة شمبانيا لهذه المناسبة، لكنه حين وضع أمام سالم أحد الكئوس استعداداً لشرب النخب نظر إليه سالم وقال معتذراً.

-هل يمكننى استبدال الشمبانيا بمشروب آخر لأنى لا أشرب الخمور؟

سأله إرنست مندهشًا.

- لماذا؟ إنه نخبكما.

- أنت تعرف أنى مسلم والخمر محرمة فى دينى.

- لكنك لازلت شابًا صغيراً لكى تلتزم هذا الإلتزام الصارم، كما أنك الآن فى مجتمع غربى لكِ فيه مطلق الحرية.

- الإلتزام يرتبط بالحرية فعلاً، وإلا أصبح قسراً يفر منه المرء إذا واتته الفرصة.

- كنت مسيحيًا ملتزمًا وأنا صغير، أذهب إلى الكنيسة كل أسبوع، الآن فى شبابى لا يعنينى هذا الأمر، ربما أهتم بذلك فى شيخوختى.

قال سالم باسمًا

- إذن فأنا فى نظرك شيخ كبير؟

ضحك إرنست وحاول أن يداعبه قائلاً:

- إلا إذا قبلت كأسًا واحداً من الشمبانيا.

قال سالم محاولاً إقناعه بموقفه.

- لقد رأيت التزامك الصارم فى العمل وهو أمر أحترمه وأقدره، فهل يرتبط هذا الالتزام بقناعتك بقيمة العمل وأهميته فى حياتك أم يرتبط بوجودك فى سويسرا وقد يختلف لو ذهبت لبلد آخر؟

أجابه إرنست متفكراً

- بالطبع لن يتغير التزامى لو تغير المكان.

- هذا ما أعتقده أيضًا، لهذا سأستبدل الشمبانيا بكوب من عصير البرتقال وتأكد أن له فى نفسى المعنى الذى قصدته.

- أظننى أوافقك على وجهة نظرك وأحترمها، لأن الالتزام بالعمل أو بالمبادئ أو بالدين مبدأ لا يتجزأ.

ونظر إلى صفوت يستوضحه رغبته فقال صفوت:

- أنا مسيحى وغير مقيد بهذا الالتزام.

وشربوا النخب المقترح وتواصل الحديث والمسامرة فى مودة، وإخاء إنسانىّ رفيع. ولما صحبهم إرنست إلى البيت صافح كل منهم فى حرارة مودعًا، واحتضن سالم بصدق وقال له:

- يشرفنى أن أكون صديقك.

فأجابه:

- أنت نعم الصديق ياإرنست.

صعد سالم إلى غرفته فوجد صفوت قد سبقه وبدأ يستبدل ملابسه، قرأ فى وجهه إمارات الرضى، ولاحظ الآخر أن «سالم» ينظر إليه فابتسم له وقال:

- الحمد لله كان النهار مثمراً والليل حافلاً بالصحبة.. صدّقنى لقد أسرتنى بثقافتك وحديثك معهم، أنا سعيد بمعرفتك.

تأثر سالم بقول رفيقه وقال له:

- أنت الآن أقرب لى من أهلى وأنا كذلك.. لن ننسى تلك اللحظات ماحيينا.

●●●●●

همس الحب

استيقظ سالم في السابعة من صباح السبت الثالث من أغسطس، تطلع من النافذة يستجلى السماء فبها يرتبط موعده مع سابينا، لو كان الجو صحواً مشرقًا فاللقاء في التاسعة، ولو كان عبوسًا رافضًا فاللقاء فى الواحدة ظهراً، كانت الشمس تبتسم فى وجهه والسماء تصفو لعينيه فنهض ليستعد. إنه لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وبالرغم من تكرار حديثه التليفونى معها خلال تلك الفترة إلا أن للعين شوق الإبصار كما للأذن شوق السماع، ولن تغنيه عن النظرة أية أحاديث تليفونية مهما تعددت وطالت.

قبل التاسعة بدقائق قليلة سمع صوت سيارة تقف عند باب البيت فنهض نحو النافذة يستطلع الأمر ليراها تنساب نحوه كشعاع الشمس الدافىء الحنون. قبل أن تضغط زر الجرس كان قد سبقها وفتح الباب، تبادلا تحية الصباح ثم توجه معها نحو السيارة حيث تبادل التحية مع والدتها ووالدها وقد خرجا لمصافحته وتبعهما شاب آخر قدمته له: صديقها فرانس، الذى صافحه محاولاً قدر جهده أن يخفى أثر المفاجأة.

جلست سابينا بينهما فى المقعد الخلفى للسيارة، سالم عن يمينها وفرانس عن يسارها ،الأب يقود وبجانبه الأم، لابد أنها لاحظت دهشة سالم من وجود صديق لها لم تذكره مرة واحدة فى أحاديثها العديدة معه ولم تنبهه حين ضربت له هذا الموعد أن شخصًا آخر سوف يحضر معهم، هل كانت تقصد مفاجأته لترى تأثير ذلك عليه؟ ساد الصمت فترة بينهم قطعه فرانس بقوله.

- حدثتنى عنك سابينا حتى تشوقت لمقابلتك.

قال سالم فى تحفظ.

- أرجو ألا تكون قد بالغت، فهى مجاملة جداً.

ثم تنبه للهدية التى كان يحملها بين يديه فقدمها لسابينا قائلا:

- أرجو أن تقبلى تلك الهدية البسيطة رمزاً لصداقتنا.

تقبلتها باسمة شاكرة ثم لاحظته يستخرج خطاباً من جيبه وهو يقول:

- أسرتى فى مصر يرسلون تحيتهم إليك فى هذا الخطاب، دعينى أقرأه لك. فرده أمام عينيها فوجدته مكتوباً بلغة غريبة لم تشهدها من قبل فسألته.

- هل هذه اللغة المصرية؟

أجابها:

- إنها اللغة العربية وهى تكتب من اليمين إلى اليسار عكس اللغات الأوروبية.

قالت مندهشة:

- إنها مقدرة غريبة أن تتحدث لغتين مختلفتين هذا الاختلاف وتتقنهما معًا، أنظر يا أبى.

ألقى الأب نظرة سريعة ثم قال ضاحكًا.

- يمكننى قراءة هذا الخطاب بعد خمس زجاجات من الويسكى أشربها دفعة واحدة.

فجأة أشارت سابينا إلى أصبعه وهمست إليه.

- أين الخاتم؟

كان يضع خاتمًا من فضة فى يسراه تعمّد أن ينزعه اليوم ليعرف إن كانت ستلاحظه وكيف سيكون رد فعلها.. أجابها.

- إنه يزعجنى أثناء العمل، هو لا يعنى شيئًا على أى حال.

سرحت بخواطرها بعيداً فلم تنصت إليه وهو يسأل فرانس

- هل أنت طالب مثل سابينا؟

أجابه:

- لا، إننى أعمل فى مصنع للكيماويات بعد أن استبعدت من المدرسة الثانوية بسبب نشاطى السياسى.

- لابد أنه نشاط غير مرغوب فيه إذن.

- أنتمى لمجموعة من الشباب تناهض الرأسمالية وتنادى بالتوزيع الاشتراكى للثروة.

- لكنك تعيش فى مجتمع رأسمالى لا يوجد فيه محتاج، لم نسمع عن وجود فقراء فى سويسرا.

- الثروة مركزة فى أيدى قلة وليست موزعة على الجميع.

- هل منعك أحد أن تصبح مليونيراً؟ إذاكانت حرية الكسب مكفولة بالقانون فالأمر يرجع إلى طموحك واجتهادك. ليس المهم عنوان الرأسمالية

أو الاشتراكية، المهم تحقيق العدل وصون الحرية ولا أظن من الصعب تحديد أى النظامين أنجح فى ذلك.

- المسألة أعقد من ذلك فى نظرى.

- ربما، لكن اهتمامك بالسياسة أثر سلبًا على دراستك.

كانت سابينا قد بدأت تتابع الحديث بعد انشغالها بنفسها لحظات، تدخلت قائلة.

- إنه ينوى إعادة المحاولة. لكن عليه أن يجمد نشاطه السياسى أولاً.

قال سالم:

- أنا أيضًا لى إهتمام بالأدب والسياسة لكنه لا يعترض دراستى للهندسة، فالمرء عليه أن يؤهل نفسه للعمل وكسب الرزق.

لم يبد فرانس حماسًا لاستئناف مناقشة ميوله السياسية مع سالم فكان توقف السيارة فرصة لتغيير الموضوع. سألته سابينا وهم يتجهون إلى مقهى يطل على الميدان الموجودين فيه.

- لا أظنك تناولت فطورك فقد أتينا إليك مبكرين.

- من قبل حضوركم بساعة فقد استيقظت فى السابعة.

قالت بجد واضح.

- إذن أخبرنى ماذا أكلت؟

ضحك من أعماق نفسه وقال لها هامسًا.

- لا أظننى فى حاجة لأنشغل بأى شىء عنك وأنت معى

ردت عليه بهمس متحدية همسه.

- أنت أيضًا تشغلنى حتى وأنت معى!

لاحظت الأم همسهما فأقبلت عليهما تقول قبل أن يلحظ أحد ما لاحظت.

- سنتناول بعض المرطبات ريثما نقرر وجهتنا، إلى الشاطىء لمن يهوى السباحة أو إلى جولة بالباخرة فى بحيرة «لوسيرن».

بعد تناول المرطبات أجمعوا على التجول فى البحيرة، فاستقلوا السيارة وتوجهوا إلى محطة البواخر حيث صعدوا على باخرة متوسطة الحجم ذات طابقين بالإضافة إلى السطح تشبه معظم البواخر السياحية فى نيل مصر، بها مطعم وكافتيريا، تتسع لما يقرب من مائتى راكب. فى الطابق العلوى جلسوا على مقاعد تجاور النوافذ ثم تحركت الباخرة فى طريقها المرسوم.

اتخذت الأم مكانها إلى جوار زوجها من ناحية ومن الناحية الأخرى جلس سالم، فى الطرف الآخر من المائدة جلست سابينا إلى جوار فرانس فأصبحت فى المواجهة لسالم تمنحه صفحة وجهها التى انعكس عليها جمال الطبيعة الخلاب المحيط بهم.

البحيرة تقع على ارتفاع ١٤٣٥ قدمًا من سطح البحر طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ميلين، تبدأ رحلة الباخرة بمدينة لوسيرن وتنتهى بمدينة «فلولن». تهيأت النفوس لما أبدعته يد الخالق من جمال، فسطح البحيرة قريب من قمم الجبال التى تحيط بها مما جعل منها مشهداً لا ينسى. مرت المركب بتمثال الشاعر المعروف شيلر ومعبد «تل» صاحب الاسطورة الشهيرة، والكنيسة اليسوعية والمنزل السويسرى القديم وهو نموذج لأول بيت أقامه الإنسان السويسرى، ثم مرت بعدة روابى أشارت إليها سابينا فى مرح قائلة:

- هذه «برونن» والرابيتان اللتان تقول الاسطورة عنهما أن الحرب من أجل إقامة سويسرا بدأت بهما، وأصبحت تلك القرى الثلاث على مرمى البصر النواة التى صنعتها، فأنت ترى سويسرا الرضيعة.

رد عليها سالم قائلا:

- أو سويسرا الجدة.

ضحكت وقالت:

- نعم كلاهما صواب.

تأمل سالم زرقة السماء الصافية وقال معبراً عما يجيش فى خاطره.

- ما أروع هذا المكان، لا يوجد جمال يضارعه إلا جمال الإنسان حين يصفو هذا الصفاء ويرق تلك الرقة.

قالت الأم وقد شعرت بانفعاله بالمشهد.

- الآن يتحدث الشاعر وما أصدق المقابلة.

قال فرانس

- لكن هذا الحال لا يدوم، تذكر أشهر الشتاء.

قال سالم:

- تلك لغة الطبيعة ولكل لغة مفرداتها وأزمنتها.

استمر فرانس يقول:

- الإنسان أيضًا يتغير ويتبدل، تتصور أنك تعرفه ثم تجده غريبًا ومختلفًا.

أحجم سالم أن يعكر صفو اللحظة وجمالها فآثر الصمت، وبنظرة سريعة فى وجه سابينا لاحظ أيضا تحفظها على ما سمعته، لكنها قالت بعد لحظات كأنها تحزم أمرها.

- أظننى فهمت ما يقصده سالم، أن الجمال فينا وبه نهتز للجمال فيما حولنا من طبيعة وإنسان.

قال سالم مؤيداً ومتعجبًا معًا.

- لقد صغت فكرتى بكل دقة كأنك تقرأين ما يدور فى رأسى.

قال الأب محاولا تنبيههم جميعًا إلى واقع لا مهرب منه وهو يمسك بذراع زوجته.

- وصلت الباخرة لنهاية رحلتها وستبدأ فى الدوران للعودة إلى «لوسيرن» من يرغب فى شراب يلحق بنا.

قال فرانس وهو ينهض

- هذه دعوة أقبلها على الفور لشعورى بالعطش.

ونظر إلى سابينا متسائلا وكانت تستند على إطار النافذة، فقالت له.

- إذهب أنت فأنا لا أشعر بالعطش.

ولما نظرت الأم لسالم فهمت رغبته فى البقاء فمضى ثلاثتهم وتركوا الإثنين معًا. قالت سابينا فور ذهابهم بعد أن عادت إلى مقعدها أمام سالم.

- أظننى فاجئتك بوجود صديق لى، كان يجب أن أخبرك بمقدمه معنا اليوم، لكننى لم أتصور أن ذلك قد يضايقك.

ظل سالم صامتًا فأضافت وكأنها تتحسس خطوها نحوه.

- أنا أيضًا فوجئت بأن الخاتم فى إصبعك لا يعنى لك شيئا لكن هذا لم يضايقنى.

قال:

- أسعدتنى ملاحظتك وسؤالك وأشعر بالغبطة أن تلك الحقيقة أرضتك.

- لعلك لاحظت كيف يصعب على فرانس فهم من حوله، كما أننى لا أفهم ميوله السياسية.

- ماذا عن اهتماماتك الأدبية؟

- أحاول كتابة الشعر فى بعض الأحيان لكننى لا أسعى لاحتراف الأدب مثلك.

دهش من قولها وسألها متعجبًا.

- وكيف عرفت هذا؟

أجابته فى ثقة

- ألم تخبرنى بطموحك أن تصبح كاتبًا يومًا ما؟ كان ذلك ونحن فى طريقنا إلى مكتب المقاول وكنت يومها تجلس إلى جوارى فى الأوتوبيس ورأيت معك قصة والتربيزنت. لقد أدهشنى ارتباطك بالكتب هذا الارتباط الوثيق.

بينما هى تسترسل فى حوارها معه إذا بهم يعودون وقد استدارت الباخرة لطريق العودة، الأم تحمل لهما كوبين من عصير البرتقال.

كانت الباخرة فى عودتها أكثر سرعة فاستغرقت حوالى ساعة حتى وصلوا إلى لوسيرن حين أعلنت سابينا.

- الآن سنذهب إلى نزهة فى الغابات.

قالت الأم ناصحة:

- من الأفضل أن يجلس سالم فى المقعد الأمامى إلى جوار زوجى ليتاح له مشاهدة أفضل للجبال التى سنمر بها.

شكرها سالم مستبدلاً مقعده معها كما نصحت ثم انطلقت السيارة بهم وهو يصافح بعينيه الأشجار المصطفة المتعانقة فى عشق غافلة أو غير عابئة بنذر الفراق. بعد ما يقرب من ساعة ونصف عرجوا إلى غابة فى الطريق حيث توقفت السيارة بين أشجارها وخرجوا منها فى ترقب وانبهار، تخيروا جزعى شجرة ملقين على الأرض وجلسوا عليهما متقابلين، سالم عن يمينه الأم أمامه سابينا عن يمينها الأب وعن يسارها فرانس. فتحت الأم حقيبة بها بعض الأطعمة الخفيفة ودعتهم فى مرح لتذوق ما أعدته لهم فى الصباح.

قال سالم مداعبًا وهو ينظر إلى سابينا.

- سحر الطبيعة يخلب الألباب ويهيئ للشعراء عرائسهم.

رمقته سابينا بنظرة مشاكسة ثم توجهت لأمها قائلة:

- هو يقصدنى بعد أن عرف بمحاولتى كتابة الشعر، نسى أنه فى الخيال يغرق كل الكُتاب وهو منهم.

قالت الأم بلهجة نصف جادة وهى تنظر لسالم:

- عرفت هذا الطموح فيك، أخبرتنى به سابينا، هى تخبرنى بكل شىء فنحن أصدقاء.

قال الأب:

- لكنه من المحير حقًا الجمع بين مهنة الهندسة والكتابة فى الأدب.

قال فرانس:

- إننى لا أفهم الشعر إذا قرأته، أما الكتابة فهى مهنة كأية مهنة أخرى تعتمد على حاجة المجتمع.

قال سالم معترضًا:

- المهنة تعتمد على الحاجة نعم، لكن الفن يعتمد على التحرر من تلك الحاجة.

كان لدى الأم استعداد دائم لتفادى اصطدام الشابين فقالت مسرعة:

- على ذكر الفن، سوف نتوجه من هنا إلى كاتدرائية شهيرة فى سويسرا هى كاتدرائية «أينشيدلن» بمقاطعة «شفيتز»، هى إحدى قلاع الفن المصور.

بعد قليل كانت السيارة تنهب الطريق نحو تلك الكاتدرائية التى وصلوها بعد ساعة تقريباً.

الكاتدرائية عبارة عن مبنى ضخم ذى سقف مرتفع كما تبدو من الخارج أمامها ميدان فسيح واسع، تتناثر على أرصفته الأكشاك التى تبيع الكتب الدينية والتاريخية المتعلقة بالمكان. قبل أن يدخلوا قرأ له فرانس لوحة مكتوبة بالألمانية عند المدخل تقول: «هذا المكان للعبادة والصلاة وليس متحفًا للزيارة» ثم علق على ذلك قائلا:

- سوف ترى حين تدخل وتشاهد إن كان متحفًا أم معبداً كما يدّعون، ملايين الفرنكات أنفقت فى سبيل إقامة هذا المكان والإبقاء عليه ثم يدّعون أنه للصلاة، هل الرب يهتم إن كانت الحوائط مزينة ومزخرفة وينصرف لو كانت بسيطة خالية؟

قالت سابينا:

- يقصد فرانس أنه كان أولى بهم إنفاق تلك الأموال على بناء المستشفيات والمدارس أو مساعدة الدول الفقيرة التى لا تملك إطعام مواطنيها.

دخلوا الكاتدرائية وطافوا بها وتأكد لسالم وصفهم، جميع الحوائط مرسومة والأسقف مزينة بقصص من الكتاب المقدس، بالإضافة إلى التماثيل والمحاريب المنتشرة هنا وهناك لكثير من القديسين والقديسات ممن لهم تاريخ مجيد فى الكفاح ضد الكفر، الذين تعرضوا لاضطهاد الطاغوت من رومان وغيرهم، كما يوجد بداخل الكاتدرائية كنيسة للصلاة وإقامة الشعائر على النظام الكاثوليكى كما فهم. ذهل سالم بما رآه من روعة الفن وبهائه والقدرة الخلاقة التى حولت هذا المكان لمعبد للفن. سأله فرانس بعد أن خرجوا:

- أظنك توافقنى الآن أن هذا إسراف وتبديد للمال؟

هز سالم رأسه قائلاً وهو ينظر إلى الأم بامتنان

- ما رأيته شىء عظيم يستحق الفخر، إننى سعيد جداً بدعوتى لزيارته.

قالت الأم مؤكدة:

هذا أيضًا رأيى، لكن جيل الشباب ينظر إلى الأمور بتمرد.

- يا سيدتى الشىء العظيم لا يبنى بدون جهد ومال.

كانت السيدة تعرف الكثير عن المكان فأخذت تقص عليه جانبًا من تاريخه.

- شهدت كاتدرائية «أينشيدلن» عصرًا ذهبيًا امتد من القرن العاشر حتى القرن الثانى عشر، كانت فترة حافلة بالحياة الدينية والفلسفية، كثير من شعائر العبادة التى اتبعها الرهبان فى هذا المكان أتخذت قوانين للحياة فى عديد من الأديرة الأخرى فى سويسرا وجنوب ألمانيا، وكان طليعة الرهبان فى أماكن مثل موري وشافهوزن قادمة من أينشيدلن، بعض مشاهير النساك والعباد كالقديس فولفجنج بدأوا مشوارهم من هذا المكان.

قالت سابينا مقاطعة:

- حينئذ كان حقًا معبداً يأسر نفوس العامة ويحرك مشاعرهم.

أضاف فرانس:

- نعم، حين كان الدين ورجاله يسيطرون على أنماط الحياة ويحجرون على التفكير الحر المستنير!

سأله سالم:

- هل لى أن أسألك عن عقيدتك؟

أجابه بسرعة كأنه ينفى عن نفسه تهمة باطلة.

- لا شىء، والدتى من الكاثوليك، لكننى غير مقتنع بأية عقيدة دينية.

دهش سالم من جرأته ونظر إلى سابينا التى قالت:

- لست مثله، أنا أؤمن بالله وأعتقد فى وجوده مهما اختلفت مسمياته فى الأديان المتعددة.

انتهزت الأم فترة الصمت بينهم لتستمر قائلة وهى معجبة باهتمام سالم بحديثها.

- من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر تدهورت الأحوال فى «أينشيدلن» ومرت فترة من الانحدار والانكماش بسبب انخراط رجال الدين فى السياسة مما أدى إلى تدهور أحوال الرهبان، فقل عددهم وتشتت معظمهم. هكذا استمرت الأحوال فى العصور الوسطى.

قال الأب ملاحظًا:

- السياسة تفسد كل شىء

قال سالم معلقًا:

- رجال الدين يحدثون الناس عن آخرتهم، والسياسة حديث الدنيا بمطامعها الزائلة فكيف يستقيم الأمر؟

أضافت الأم دون أن تفقد حماسها:

- لكن الأحوال بدأت تتحسن فى أواخر القرن السادس عشر حين بدأ توحيد النظام الكنسى ونتيجة لذلك زاد عدد الحجاج لهذا المكان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وصاحب هذه اليقظة إنجازات ملحوظة فى الفنون المختلفة ترى أثرها الهائل داخل الكاتدرائية، وزاد اهتمام المجتمع بالكاتدرائية فى القرنين التاسع عشر والعشرين واعترف الناس بما أدته من

دور هام فى نشر وتطوير التعليم الكاثوليكى فى سويسرا. لقد وصل عدد الرهبان فى دير أينشيدلن اليوم إلى مائتين وهو رقم لم يصل إليه منذ إنشائه، فلا يمكن نكران ما للمكان من مكانة تاريخية عظيمة وما ترتب على هذا الوضع من حقوق خاصة كفلها له القانون الكنسى.

قال سالم منبهراً بثقافتها وحسن سردها:

- أشكرك على هذا الإيضاح وهذه المعلومات القيمة.

ابتسمت وقالت فى تواضع

- قرأت ذلك بالأمس فى أحد الكتيبات الخاصة عن الكاتدرائية ودير أينشيدلن استعداداً لك. كنت متأكدة أنك سترغب فى المعرفة. الآن سنذهب إلى المنزل لراحة قصيرة قبل طعام العشاء.

جاوزت الساعة الثامنة مساءً حين انتهوا من طعامهم فى مطعم إندونيسى مجاور لمنزلهم، سلمت عليه الأم مودعة بمودة خالصة شعر بها وهى تشد على يده بقوة وتقبل وجنته ثم قالت له:

- داوم على الاتصال بنا، سوف تخبرك سابينا بموعد لقائنا التالى.

قاد الأب السيارة متوجهًا إلى «بريكون» إلى جواره فرانس، وفى المقعد الخلفى جلس سالم وإلى جواره سابينا. أثناء الطريق قال لها:

- أشكرك جداً لهذا اليوم البهيج الذى قضيته معكم والذى لن أنساه أبداً.

ردت عليه قائلة:

- أنا أيضًا أشكرك لهديتك الجميلة وتحية أسرتك لى وأود أن تكتب لهم بذلك، وأمنيتى أن أراهم.

بعد لحظة صمت أضافت:

- لكننى أود أن أفصح لك بشىء.

- لا تترددى، أشعر أن صداقتنا تنمو بسرعة وتزدهر بقدر لم أحلم به.

- كنت متوترة بعض الشىء، وأظننى لم أقترب منك بالقدر الذى يرضينى، لم تكن فكرة جيدة أن أكون مع صديقين فى نفس الوقت. أحسبنى كنت سأشعر بمزيد من السعادة لو كنت معك وحدك.

- لا يزال أمامنا أيام عديدة، يمكننا ترتيب ما نشاء من لقاء، فقط أخبرينى بالموعد الذى يناسبك.

- سوف أخبرك بالموعد والمكان إذا اطمأنت أمى ووافقت على هذه الخطوة، هناك أشياء من الضرورى ألا أخطئ فى تقديرها، لذا يجب مناقشتها معها.

- إنى مطمئن تمامًا لحسن تقدير والدتك للأمور، إنها سيدة عظيمة.

- هى أيضًا تكن لك احترامًا ووداً كبيراً وتهتم بك جداً.

ثم غشيهما صمت رائع فيه تخلد النفوس للسكينة وتتخاطب الأرواح فى شفافية بغير حاجة إلى كلمات.

تذكر سالم وهو يستلقى على فراشه قول العقاد متحديًا النوم وهو مقبل عليه فى قصته «سارة»، بعد لقاء بهيج بها «أيها النوم أتحدى أحلامك أن تعطينى فوق ما أخذت اليوم فى صحو اليقظة، وأنا كاسب الرهان على الحالين».

●●●●●

بين «بريكون» و«بادن»

لم تكن بريكون - كقرية صغيرة - تختلف فى نظافتها ونظامها والإهتمام بأهلها عن أية مدينة كبيرة، فكل شوارعها ممهدة مسفلتة، بها مكتبان للبريد أحدهما فى الطرف الذى يعيش فيه سالم وصحبه والآخر بجوار محطة القطار الفرعية بمركز القرية، بها ثلاثة مطاعم وصالة للرقص ومدرسة ومحلات لبيع الأطعمة والملابس والأجهزة الكهربية. أما دور السينما والمسرح فتوجد فى مدينة مجاورة تسمى «ديتيكون» يمكن الوصول إليها بالقطار فى سهولة، لكن تلك القرية الصغيرة تميزت عن المدن الكبيرة بالهدوء والصفاء والحقول الشاسعة التى تحيطها.

وكان من أحب الأشياء إلى سالم أثناء وجوده فى هذه القرية أن يتجول بين أحضان تلك الطبيعة الهادئة، فيمضى سائراً بين المزارع حتى يأنس إلى مكان يتخذ منه مجلسًا ويبدأ فى قراءة ما حمله من كتاب، هذا بالطبع لو كان الجو صحواً والوقت متوفراً.

رآه صفوت يرتدى ملابسه ويستعد للخروج والوقت لا يزال مبكراً فسأله

- اليوم الأحد فلم هذا البكور؟

- الجو رائع لجولة بين الحقول، كما أنه لا يشغلنى اليوم شئ.

صمت صفوت متفكراً ونظر فى ساعته كأنه يحزم أمره ثم قال

- أنا أيضًا لا يشغلنى غير النوم فهل أصحبك فى جولتك؟ سأستعد خلال دقائق.

- فى الحقيقة أنا فى حاجة إلى صاحب، والكتاب الذى أطالعه هذه الأيام عن «سن ياتسن» أبو الصين ليس بالصاحب المناسب هذا الصباح.

- يبدو أنك قضيت بالأمس يومًا حافلاً فقد استغرقت فى نومك مبكراً ولم تستيقظ فى الليل كعادتك.

- هذا صحيح تمامًا، هيا بنا وسأقص عليك كل شئ.

خرجا معًا من الباب المتصل بالدور العلوى الذى يقطنان فيه مع اثنين من الطليان «أنطونيو» و«روسانو» وكانا لا يزالا نائمين.

قال صفوت وهو يغلق الباب خلفهما بحذر:

- يبدو أن الجميع بالبيت نيام، فالنوافذ فى الدور الأرضى مغلقة.

قال سالم متذكراً الفترة التى قضاها مع اليوغسلاف فى الدور الأرضى.

- يقضون ليلة السبت فى صخب ثم ينامون يوم الأحد حتى الظهيرة، لهذا سعدت بانتقالى إلى حجرتك.

- هكذا حياة الشباب فى أوروبا، عمل شاق طوال الأسبوع ثم انطلاق بلا حدود فى العطلة، تختلف عن حياتنا فى مصر حيث قيود الأسرة والمجتمع والدين.

- الترابط الأسرى موجود أيضًا هنا ولا يزال للدين مكانة، هذا ما شاهدته فى أسرة سابينا وهو نموذج لأسرة من الطبقة المتوسطة التى تشكل كما تعرف الشريحة الكبرى فى المجتمع الغربى.

ابتسم صفوت وقال:

- إياك أن تكون قد قضيت الأمس تحدثهم فى الأدب والاجتماع وتركت الفتاة تتمزق ضجراً.

اتخذا وجهة المزارع مولين ظهريهما لمبانى القرية، وبينما الطريق يرتفع بهما وينخفض ثم ينحرف يمنة ويسرة فتنكشف أمامهما التضاريس البديعة للريف السويسرى.. بدأ سالم يقص على رفيقه أحداث الأمس التى عاشها مع سابينا وأسرتها وصديقها. قال صفوت معلقًا بعد أن انتهى صديقه من روايته.

- إذن فالأمر لم يعد مزاحًا على الأقل من ناحيتها؟

تخير سالم شجرة وارفة جلس إلى ظلها داعيًا صفوت للاستمتاع بالمشهد الرائع من المزارع الخضراء المتدرجة على مرمى البصر، ثم قال وطرفه سارح فى الأفق البعيد.

- من المنتظر أن تكون أكثر معرفة بى منها، أنا لم أهزل فى علاقتى بإنسان قط، كيف تشك فى جدية علاقتى بها؟

قال صفوت:

- أنت لا تبدو شخصًا تبهره حياة الغرب، وأظنها ترغب فى معرفة الطريق إليك قبل أن تمضى فيه، لهذا يشكل وجودك فى سويسرا جانبًا هامًا من جدية تلك العلاقة.

- ألم أخبرك من قبل أن العقل يسبق العاطفة؟

- إنه نمط حياة يا صديقى ينطبق على الأنشطة الإنسانية كلها كما

يحياها الإنسان فى الغرب بما فيها الحب، لهذا تختلف المرأة عما نراه فى أوطاننا، لقد جربت الحياة فى أوروبا عدة سنوات كما حكيت لك وأنشأت علاقات خاصة وحميمة مع بعض النساء، لكننى حين أقرر الزواج فلا ملجأ لى غير أهلى وموطنى، هذه الفتاة معجبة بك لا شك عندى فى هذا، لكنها تعرف أنك لست شخصًا سهلاً ترضيك علاقة عابرة، والالتزام من جانبها يشترطه الوضوح من جانبك وهو ما تفتقده حتى الآن.

قال سالم متشككًا:

- لا تنس أن لها صديقًا من بلدها.

رد عليه صفوت

- هذه أقل المشاكل شأنًا، بالله عليك لو أنها تحبه فعلاً لماذا جمعت بينكما ثم أخذت تتقرب منك؟ فى ظنى أنها تصورت الخاتم فى إصبعك يعنى الإرتباط بفتاة فلما اكتشفت أنه لا يعنى لك شيئًا زال هذا الحاجز من نفسها وأصبحت على سجيتها، ثم تبين لها أنك أيضًا تميل إليها.. وهنا برز صوت العقل.

- لا أنظر للأمر نظرتك وإن كنت آراك محقًا فى ملاحظة الصراع المحتمل فى نفسى لو قاومت مشاعرى، لكن التصدى للنفس فى البداية أيسر وأقل خسارة.

- لو كنت مكانك لارتضيت بعلاقة قصيرة ثم ينتهى الأمر.

- لكى يحدث ذلك علىّ أن أعيد بناء نفسى أو بمعنى أصح هدمها، أشعر بالجوع، لنعد إلى المنزل ونتناول فطورنا.

- يبدو أن صحبتى لم تكن أفضل من «سن ياتسن».

- بالعكس، الشعور بالجوع يأتى بعد طمأنينة النفس، والحديث لصديق مخلص راحة بصرف النظر عن نتائجه.

بعد تناول إفطاره المتأخر استلقى سالم على سريره وتناول قصة «اللا أخلاقى» «لأندرياجيد» من فوق منضدة تجاوره وغاب فى مطالعتها. كانت الظهيرة قد أذنت حين وصل سمعه صوت صفوت وهو يقول مقتربًا من باب الغرفة .

- كنت أظنك مستيقظًا.

أجابه وهو يعتدل جالسًا على طرف سريره

- لا عليك كانت إغفاءة بسيطة.

- حدث أمر مدهش.

- يبدو عليك الحماس لتخبرنى به.

- حضر رجل مسن يحمل هدايا كثيرة وسأل عن «أنطونيو» و«روسانو» فلم يجدهما فأعطانى الهدايا كلها.

بدأ صفوت يضع فوق المنضدة ما يحمله من علب الشاى والكاكاو وعبوات البسكويت والشيكولاتة ومعلبات العصير وبعض الكتب بدا لسالم أنها كتب دينية. إستمر صفوت يقول فى حماس

- إنه أحد القساوسة ممن يسعون لدعم الروح الدينية بين الشباب، إعتاد على زيارة زملائنا الطليان بين الحين والحين ليقدم لهم النصح مع بعض الهدايا، لكنه لم يجدهم اليوم فأصبحت من نصيبنا، هو يدعونا أيضًا لزيارة

إحدى الكنائس فى «بادن» وسيمر علينا بعد نصف ساعة بسيارته ليصحبنا إلى هناك.

- لقد دعاك أنت لأنه عرف أنك مسيحى.

- لا أظنه يعترض على ذهابك معنا، وأنت لن تمتنع عن صحبتى لو دعاك..إنها فرصة لنقضى النهار فى تلك المدينة الرائعة.

لم يقاوم سالم فى نفسه تلك الرغبة فى مشاهدة مدينة جديدة لم يزرها من قبل خاصة وقد سنحت له الفرصة من حيث لا يحتسب. حضر الرجل بعد قليل فوجدهما مستعدين. قال صفوت وهو يقدم صاحبه للقس

- هذا سالم رفيقى فى العمل والسكن.

كان الرجل كهلاً، تبدو على وجهه علامات الزهد والترفع تنطق عيناه بالشفقة والاضطراب عليه تلك المسحة التى تلحظها فى رجال الدين، طويل القامة نحيل يرتدى ملابس بسيطة عادية. نظر إلى سالم متفحصًا وهو يصافحه وسأله:

- هل ترغب فى صحبتنا إلى الكنيسة فى «بادن»؟

أجابه سالم

- فى الحقيقة أنا مسلم، لكن صديقى يلح علىّ لصحبته فى زيارة «بادن». سكت الرجل برهة ثم قال:

- الإسلام دين السلام، يسعدنى أن أصحبك إلى مسجد زيورخ يوم الجمعة لكنك تعمل فى هذا اليوم، وأرحب بك معنا إلى «بادن» اليوم.

تأثر سالم بطيبته وصدق سريرته وقال:

- أشكرك لدعوتك الكريمة.

استقلوا السيارة فى اتجاه «بادن» فى طريق شُق فى سفح الجبل فشاهدوا عن يسارهم القرى المتناثرة فى سفحه ومنازلها التى بدت من هذا الارتفاع مثل الدمى التى يصنعها الأطفال من رمال الشاطىء.

استأنف القس الحديث متسائلاً:

- كيف وجدتما سويسرا؟

أجابه صفوت:

- بلد جميلة جداً.

سألهما القس

- وكيف تنظران لشعبها؟

تحمس سالم للاجابة قائلاً:

- شعب كريم رقيق يحب الحياة ولا يجور على حقوق الآخرين. اتخذه سن ياتسن أبو الصين مثالاً للأمة المتحدة من أقوام مختلفى اللغة والأصول. بالرغم من وجود ثلاث لغات رسمية وأجناس متعددة إلا أن الثقافة والنظام السياسى الرشيدكفل حقوقًا متساوية للجميع.

قال القس:

- للدين دائمًا دوره الهام فى نشر روح الآخاء وترسيخ مبادئ الأخلاق، هذا ما نحاول الحفاظ عليه، الشباب اليوم لا ينظرون إلى الدين نظرة جادة.

قال صفوت

- فى بلادنا يختلف الأمر، يتطرف الشباب بدينهم ويجعلون منه غاية حياتهم.

قال القس:

- أحيانًا ينشأ هذا التفاوت بسبب الثقافة، أو ربما لضعف تلك الثقافة . هناك أيضًا من يسخر من تمسكنا بالسلام ويعتبره هروبًا من مواجهة الواقع.. الصراع الأبدى بين الخير والشر.

قال سالم وقد تذكر القصة التى يقرأها لأندرياجيد

- فى قصة اللا أخلاقى يسخر «جيد» من الوطن السويسرى الأمين فيقول على لسان أحد أبطاله: «بماذا أفادتهم صحتهم وحيويتهم؟ ليست لديهم جرائم؛ ولا تاريخ ولا آداب ولا فنون، شجرة زهر جرداء بلا أشواك أو زهور، قد لا يكون هناك ما يخشاه المرء منهم لكن ليس هناك أيضًا ما يتعلمه». ولا أعتقد أنه كان محقًّ فى كل ما قاله

قال القس:

- للكتّاب رؤية غريبة لواقع الحياة، فهم لا يرضون به مهما كان مثاليًا وكأنهم يشكون فى قدرة الخير على الإنتصار.

وصلت السيارة إلى الكنيسة فى «بادن» وخرجوا منها متجهين لغايتهم إلا أن القس اعتذر لهما بأنه سيلحق بالقداس فى كنيسة أخرى تناسب مذهبه وعليهما أن يعودا إلى «بريكون» بدونه.

صعدا السلم إلى بهو الكنيسة بعد أن تركهما القس محييًا، ودلفا من الباب إلى الداخل فوجدا الصلاة قد بدأت والتراتيل تتابع. إنها المرة الأولى

التى يشهد فيها سالم قداسًا. تقدم صفوت للصلاة بينما جلس سالم فى الصف الخلفى يراقب ما يدور وقد سرى فيه شعور الطمأنينة والهدوء الذى يشمل المكان، كانت الترانيم تتلى بالألمانية بوجوه داعية راجية يحيطها الترقب والصمت بين ترتيل وترتيل، ثم ألقى القس خطبة طويلة، كانت القاعة غاصة بالحاضرين من جميع الأعمار وأدهشه وجود عدد محسوس من الشباب والفتيات لم يكونوا أقل خشوعًا وابتهالاً من الكهول والشيوخ!

إنتهى القداس بعد حوالى ساعة وانفض الجمع واعتزم سالم ورفيقه أن يتعرفا على تلك المدينة ما تبقى من سويعات النهار. توجها إلى حديقة واسعة كثيفة الأشجار قريبة من الكنيسة ينشدان متنفسا، تنقسم الحديقة إلى قسمين أحدهما أعد للجلوس بمقاعد متقابلة يتوسطهم ملعبًا للشطرنج بقطع ضخمة فى حجم اللاعبين، والقسم الآخر وهو بقية الحديقة ترك على طبيعته بأدغاله الكثيرة وعيون الماء المتناثرة فيه. سار سالم وصاحبه بين الأشجار ينصتان لزقزقة العصافير وحفيف الأغصان، يترعان من تلك الخضرة المهيمنة على كل شىء. على جانب هذه الحديقة توجد بحيرة صغيرة يصب فيها شلال رقيق يعطى منظراً بديعًا والوقت يقترب من الغروب، لقد آتلفت حركة الزمن مع روعة المكان. مضى وقت طويل وهما صامتان قطعه صفوت بقوله:

- ألا يزال ذهنك مشغول بحديث الصباح؟

أجابه سالم معترفًا بفراسته

- نبهنى حديث القس بطريقة غير مباشرة لخطورة اختلاف الثقافة بين الشعوب مما ينتج عنه أحيانًا اختلافًا فى ردود الأفعال لنفس القضايا لدرجة التضاد.

سأله صفوت متحيراً:

- ما علاقة ذلك بحديث الصباح؟

أجابه سالم وهو يأخذ بيده صاعداً على سلم منحوت فى الصخر يصل إلى مستوى الشارع.

- لكى أنظر إلى علاقتى بسابينا بجدية لابد أن أقدّر لاختلاف الثقافة بيننا قدره.

- لو كان هناك إختلاف فى الثقافة بينكما فهو بالتأكيد لصالحك.

- لا أقصد بالثقافة التحصيل الفردى للآداب والفنون وإنما أقصد بها ما يورثه المجتمع من قيم، هل تذكر حديثنا عن أهمية بكورة الفتاة قبل الزواج فى مجتمعنا وكيف تكتسب القيمة المطلقة للطهارة والشرف بينما فى الغرب تكاد الفتاة تموت خجلاً لو ظلت بكراً حتى زواجها لأن ذلك يوحى بوجود عيب فيها نفر منها الشباب؟

- لكنك قلت أنك لا ترفض فتاة لهذا السبب.

- إننى لا أنوى العيش هنا ولا أملك تغيير قيم الأشياء فى النفوس، كما أن الاصطدام بين الفرد والمجتمع فى تلك المسألة لا يجنى فيه الفرد غير الخسارة.

من مستوى الشارع إختفت قطع الشطرنج العملاقة بلاعبيها وبدت الحديقة بأدغالها وعيون الماء فيها نموذجًا لفردوس مفقود.

ظل الصاحبان يسيران فى شوارع المدينة الخيالية ينعمان بجمال المعروضات فى محالها المتراصة، وتنسيق المنازل المتجاورة والزهور تنتشر فى شرفاتها بابتهاج تفتن ألوانها الأنظار. قال صفوت مندهشًا وهو يشير إلى إحدى «فاترينات» العرض :

- أنظر إلى تلك السجادة، ثمنها عشرون ألف فرنك بينما السيارة التى بجوارها أحدث موديل ثمنها ثمانية آلاف.

إقترب سالم وتأمل ما أشار إليه صفوت وسكت طويلاً قبل أن يقول:

- تلك هى قيم الأشياء هنا تنظر إليها بدهشة لأنك غريب بينما ينتظر البائع لها المشترى وهو منه قريب.

●●●●●

هل يلتقى المتوازيان؟

عادت عجلة العمل للدوران واسترد البدن نشاطه الزائد ملبيًا ضرورات العيش ومقومات الحياة خاصة ذلك النوع من العمل الذى يعتمد على العضلات والأعصاب، ومهما إشتدت السواعد فهناك دائمًا ما يختبر قدرتها على الصمود والإستمرار.

فى الساعة الحادية عشرة صباحًا إصطحبه إرنست ومعهما صفوت إلى حيث لا يعرفان، وبعد ربع ساعة وجدوا أنفسهم أمام محطة قطار حيث إصطفت عربات قطار بضاعة، أشار إرنست إلى إحدى عرباته وقال:

- علينا أن نفرغ حمولة هذه العربة من جوالات السماد ونرصها بانتظام فى هذا المكان حتى تأتى السيارات لنقله إلى المخازن.

نظر سالم إلى عربة القطار التى تشير إليها يده فرآها ممتلئة بجوالات السماد العضوى الذى يستخدمونه فى تسميد الحدائق، لا يقل وزن الجوال عن ستين كيلو جرامًا، وتصور أن تلك مهمتهم حتى نهاية الأسبوع حتى فوجئ بإرنست يقول منبهًا.

- يجب أن ننتهى من تلك المهمة اليوم، سوف أصعد إلى العربة لدفع الجوالات إلى الرصيف ثم تقومان معًا برصها طبقات فوق بعضها البعض.

لا مجال للجدال مع إرنست، لهذا بدأ العمل فوراً بهمة زائدة، وسالم على يقين أن ما يطلبه المشرف ضربًا من الخيال.

وفى الثانية عشرة توقفوا للغداء والإرهاق قد استبد بهم. شعر سالم أن إرنست جاد فى طلبه إنهاء هذه المهمة اليوم فحاول أن يفتش بعقله عن سبب لتلك الثقة فى تحقيقه لما يقول دون جدوى. تضاعفت همتهم جميعًا فى محاولة مستميتة لقهر الزمن، الساعة تقترب من الثالثة والنصف ونصف العربة لا يزال ممتلئًا والكل يلهث دون توقف حتى خطرت لسالم فكرة فتوجه إلى إرنست قائلاً:

- لن ننتهى من هذا العمل اليوم، قضينا ثلاث ساعات فى أقل من نصف الكمية، الوقت المتبقى لن يكفى.

نظر إليه وقال ضاحكًا فى ثقة:

- سوف ننتهى من تلك المهمة فى الخامسة أى بعد ساعتين بالضبط.

- أنت تتحدث عن المستحيل.

- هل تعتبر ذلك تحديًا ؟

- بكل تأكيد.

قفز إرنست إلى الرصيف وطلب منهما الصعود إلى العربة وإلقاء الجوالات كل من باب مختلف ليضاعف معدل التفريغ ولم يلق بالاً لحسن الرص والتنظيم الذى آل إليه فعله وإنما إكتفى بجر الجوالات بعيداً عن عربة القطار حتى لا تتكدس وتعوق التفريغ، بهذا تمكن من إعلان فوزه بالرغم من كومة الجوالات المبعثرة أمام عربة القطار، لم يلحظ أن الفائز فى الحقيقة هو سالم وصاحبه اللذان تخلصا من هذا الموقف العصيب بجهد أقل دون إغضاب المشرف العنيد. قال صفوت وهما فى طريق العودة مكدودين متعبين:

- لولا حيلتك لقضينا يومًا عصيبًا وربما جزءًا من الليل، مثل يوم صب الخرسانة تحت المطر الغزير.

قال سالم وذكرى ذلك اليوم تبدو بعيدة باهتة:

- لا غنى عن العقل مهما بدا الجسد قويًا، هو أيضًا استخدم عقله ليحقق ما بدا لنا مستحيلاً، حين استبدل شروطه ليصبح مطلبه ممكنًا، لا تنس أنه المدعى والقاضى معًا.

قال صفوت وهو يهز رأسه:

- أظنك أشد منه عناداً وتجعل من المستحيل ممكنًا مثله، لهذا فهو يميل إليك لإدراكه أنك تفهمه.

قال سالم:

- لا تبالغ فما فعلته كان عفو الخاطر.

أصر صفوت قائلاً:

- أنت لا تعرف نفسك جيداً.

سكت سالم والشك يغالبه فى صحة ما يقوله صفوت ثم أسره إمتداد الطريق أمام بصره منتظراً العلامة المألوفة لقرية «بريكون» وما تحمله من شعور باقتراب الراحة والخلود إلى النوم، حتى صورة سابينا حين لاحت لخياله رجاها الانتظار. بعد لحظات تأكد أن ما يقوله صاحبه عنه صحيحًا، فقد وجد رسالة قصيرة فى انتظاره بالبيت مكتوبة بخط سابينا تسلمها زميل لهم تغيب عن العمل، تطلب منه فى رسالتها أن يحاول الاتصال بها مساء اليوم. لقد انفض عنه التعب ونسى كد النهار وفقد النوم روعة وعده

بالراحة بمجرد تلقيه الرسالة وعلمه بمضمونها، فراحة النفس تشوقها أسباب أخرى تنسى الجسد كل الأوجاع، قالت له حين أتاها صوته فى التليفون.

- أولاً إفتقدت صوتك، ثانيًا يمكننا أن نتقابل ونتحدث، لم تعترض أمى على فكرة الحديث، هى تدرك أيضًا أنى لست على وفاق تام مع فرانس هذه الأيام، ولعلك شعرت بهذا فى لقاءنا الأخير.

قال متحاشيًا ذكر «فرانس»:

- نسيت تعب النهار كله حين وجدت رسالتك فى إنتظارى ويسعدنى أن نتقابل فى القريب العاجل.

- لا أظننا نستطيع ذلك قبل نهاية الأسبوع، وإنما أردت أن أخبرك حتى لا ترتبط بموعد وكذلك لأنى لم أقدر أن أحتفظ بذلك لنفسى دون إطلاعك عليه.

- إذن سننتظر يومين آخرين ؟

- هل تفضل السبت أم الأحد ؟

- كلاهما .

- أنا أيضًا، لكن دعنا نكون جادين ونحدد موعداً.

- السبت فى العاشرة صباحًا مع دعوة على الغداء، هل يناسبك ذلك؟

- نعم، هل هناك مكان معين فى ذهنك يسهل على كلينا الوصول إليه؟

- ما رأيك فى أن نتقابل بالسوق الرئيسى لمدينة «ديتيكون»؟ أعرفه جيداً ويمكننى الذهاب إليه بالقطار من قريتى.

سكتت برهة ثم قالت:

- أظنه إختياراً معقولاً وإن كان بعيداً عنى بعض الشىء، إذن ليكن الموعد فى الحادية عشرة.

- اتفقنا، أرجو أن تحملى سلامى لوالديك.

- سوف أفعل، كما أرجوك أن تتناول عشاءك، أنت لا تأكل جيداً.

- فقط حين تكونين معى.

- حينئذ تنشغل بالحديث عن الطعام والشراب.

- أنت أيضًا تفعلين ذلك.

- لكننى أملك بعض الكيلوجرامات الزائدة يمكننى الاستغناء عنها، أما أنت فلا تزال نحيلا.

- لفتاة لم تبلغ عامها السابع عشر بعد لا أجد أية زيادة واضحة.

ضحكت مسرورة بمداعبته لها وقالت:

- لنكمل حديثنا يوم السبت فقد حان موعد نومى .

- أتمنى لك نومًا هادئًا.

عاد سالم إلى البيت ونغمات صوتها تطرب نفسه، اللهفة لرؤيتها تتملك جوارحه وتلح على الزمن المتبقى للقائها أن ينطوى، وتوارى العقل فى لحظة نداء العاطفة، وانطوى الزمن فأقبل يوم السبت المنتظر بوعد اللقاء، توجه سالم إلى مكان اللقاء يتراقص فى نفسه الشك فى مجيئها ويطرح لشكه ألف سبب، بل أخذ يراجع حديثها معه ليتثبت من الموعد والمكان. لقد وصل

مبكراً عن موعده ساعة كاملة وأخذ يتجول فى المكان محاولاً شغل الوقت أو شغل النفس بمشاهدة المعروضات ومراقبة البائعين والمشترين فى هذا السوق الهائل، ولما سئم التجوال جلس على أحد الكراسى وبدأ يطالع مجلة أسبوعية إشتراها وهو فى طريقه إلى محطة القطار. لم تمض عليه خمس دقائق حتى شعر بأنامل خفيفة تداعب كتفه من الخلف فالتفت بسرعة ليجدها على مقربة منه تبتسم فى إشراق. كانت ترتدى بنطلون جينز أبيض اللون وفانلة زرقاء قصيرة الأكمام وقد تركت شعرها الذهبى منسدلاً على كتفيها فى تأنق ودلال. قالت وهى تتخذ مجلسها لجواره :

- حضرت مبكراً، لكننى لم أتوقع أن أقابلك مصادفة. كنت أمر من هنا محاولة قتل الوقت حتى يحين موعدنا .

- أنا محظوظ إذ قابلتك منذ البداية.

- أظننى أكثر منك حظًا، فما خطر ببالى قط أن أقابل شابًا مصريًا فى سويسرا فضلاً عن أن نصبح أصدقاء.

قال بعد فترة صمت:

- الآن يلحّ السؤال علينا وماذا بعد؟

قالت بسرعة قبل أن يغلبه جده:

- دعنا نتناول مشروبًا فى الكافتيريا المجاورة قبل أن نبدأ هذا الحديث، المسألة ليست شائكة كما ينسجها عقلك فلا تنزعج.

اصطحبها من يدها نحو المكان الذى أشارت إليه، ووقع إختيارها على مائدة من الموائد المتناثرة خارج الكافتيريا جلسا إليها متقابلين وابتسامة عينيها لا تفارقها ، قالت والطمأنينة فى نفسها تسكن من قلقه:

- تصور، لاحظت أمى التقارب بيننا قبل أن أتنبه إليه بنفسى لكنها لم تصرح لى به ، كان يشغلها ما يمكن أن يسببه ذلك لى من حيرة، كما أنها شعرت بما يجول فى خاطرك من تساؤلات.. قالت إن رغبتنا فى الحديث والمصارحة هو أسلم محاولة، لهذا شجعتنى للمضى إليك.. هذا لا يعنى طبعًا أننى لم أكن أرغب فى ذلك من أعماق نفسى.

- الشعور الذى ينمو فى نفسى نحوك لا أستطيع مقاومته بالرغم من تربص العقل، كما أننى لا أستريح لتقويض علاقتك بفرانس بسببى.

- هذا غير صحيح، صداقتى بفرانس لم تكن أبداً بهذه المتانة، عرفته منذ عام، لم أفهم أبداً ما يفكر فيه وحسبت أن هذا شأن الرجال فى شبابهم، لكننى حين التقيتك اندهشت لوجود شاب مثله أستطيع فهمه والإحساس به بسهولة، ثم اكتشفت أنك أيضًا تصل إلى خواطرى وتحس بى بنفس القدر من الشفافية. أنت لا تعرف الحاجز الهائل الذى زال من خيالى حين أخبرتنى أن الخاتم فى أصبعك لم يكن يعنى ارتباطًا بفتاة أخرى.. فجأة استردت مشاعرى حريتها.

- أما أنا فقد صفدت أحاسيسى وأنا أكتشف أنك مرتبطة بصديق.

- نعم شعرت بإحباطك فوراً وتألمت لمفاجئتك به.. لم أقصد لذلك أبداً.

- لكن فرانس يعمل ويمكن الاعتماد عليه، أما أنا فلا زلت طالبًا لعامين آخرين.

- لا تتعجل الأمور، أنا أيضًا لا أزال طالبة.

كانت رائحة القهوة الطازجة تغازل أنفه فبدأ يرتشف من كوبه بينما هى

تتذوق كوبًا من الشيكولاتة الساخنة.. قال وكأنه يرفع عن كاهله عبئًا ثقيلاً.

- لا تنسى أننى أعيش فى مصر وبها يرتبط مصيرى ولا أنوى الابتعاد عنها والعيش فى بلد سواها.

قالت وهى تبتسم كأنها كانت تتساءل متى يفصح عما يقلقه.

- لماذا تفكر فى تخطى عقبة لم تعترضنا؟

- لا أحب أن أسبب لكِ ألمًا أو أكون سببًا فى إحباطك.

- ولماذا لم تفترض أنى قد أرغب فى العيش فى مصر معك؟

نظر إليها مندهشًا غير مصدق، فأضافت كأنها تحل مسألة رياضية بسيطة.

- الأسباب التي تحتم عليك البقاء فى مصر أقوى من تلك التى تجعلنى أفضل العيش فى سويسرا.

- لكن أسرتك تعيش هنا.

- وماذايمنعهم من الحضور إلى مصر فى أى وقت؟ أمى أيضًا تركت وطنها فى النمسا وأتت للعيش مع أبى فى سويسرا ولم تكن بلغت واحداً وعشرين عامًا. وكما قلت هذه مسألة سابقة لأوانها، لكنها فى جميع الأحوال ليست معضلة كما تصور لك نفسك.. المهم فى نظرى أن تنهى دراستك الجامعية وأن أكمل أيضًا دراستى، ويمكننا الاستفادة بهذا الوقت فى توطيد صداقتنا والإعداد لمستقبلنا معًا.

كانت يدها تلامس يده فشعر بنبض أحاسيسها كما وعى صدق حديثها.. قال معجبًا ببرونق روحها.

- أحضرت معك كل الإجابات الممكنة ولم يكن فى ذهنى غير تساؤلات محيرة.

قالت فى دلال

- يبدو أننى أفهمك أكثر مما تفهم نفسك، تقول أمى أن هذا حال الفنانين والكتاب فى كل مكان.

ابتسم دون أن يفوه بكلمة فسألته عن سر ابتسامته فأجابها

- تعرفين أن لى رفيقًا فى العمل طالبًا مصريًا، نعيش معًا فى «بريكون» فى حجرة واحدة حدثته عنك فقال لى هذه الفتاة تحبك.

- ألازلت فى حاجة أن أؤكد لك هذا؟

قال لها وقلبه يفيض سعادة

- هل تحبى أن نسير قليلاً ونبحث عن مطعم للغداء؟

سارا جنبًا إلى جنب تشملهما لحظة صفاء ومحبة نادرة.. سألته بعد لحظات قليلة

- هل تعلمنى اللغة العربية؟ أريد أن أقرأ ما تكتبه، وسوف أعلمك الألمانية لتستطيع التحدث مع أبى، إنه والد حنون جداً، ولا يتدخل فى حياتى أبداً.

كان ضغط يده على يدها كافيًا لإجابتها فلاذت بالصمت.

سألها وهما يتناولان طعام الغداء.

- هل يمكنك قضاء بقية اليوم معى أم لديك التزامات أخرى؟ الجو رائع ونستطيع الاستمتاع به فى هذا المكان الجميل.

أجابته بأسف واضح.

- يجب أن أقابل فرانس هذا المساء، إنه يشعر باقتراب علاقتى معه من نهايتها ويحسن أن تكون نهاية هادئة وسريعة.

- وماذا عن غدك؟

- أريد أن أختلى بنفسى بعض الوقت لأستوعب ما يجرى ولأرتب أيامى المقبلة معك، لكننى سأنتظر منك مكالمة فى مساء الغد لأطمئن عليك.

- دون شك، والآن لنستمتع باختيارك من «الآيس كريم».

بعد الغداء اصطحبها إلى محطة الأوتوبيس حيث استقلته إلى قريتها واتخذ هو طريقه إلى محطة القطار عائداً إلى «بريكون» وبين جنبيه قدر من السعادة يكفيه عمراً وحاول أن يقنع عقله أن التوجس من القدر أحيانًا ليس له ما يبرره وأن قواعد المنطق ليست ملزمة فى عالم الروح.

●●●●●

١٣

فى مدينة «تسوج»

تكررت الاتصالات التليفونية بينهما طوال الأسبوع حتى قالت له فى إحدى المرات من فرط سعادتها به:

– كيف سيكون الحال حين تعود لمصر وتنشغل بدراستك؟ كم سيمضى من وقت حتى أسمع صوتك؟

أجابها وكأنها أيقظته من حلم جميل:

– سوف نتخطى تلك العقبة حين تعترضنا.. كان هذا قولك.

ضحكت قائلة:

– هكذا يجب أن يذكر أحدنا الآخر.. هل تعرف أن شعورى نحوك تغذيه روح المغامرة وما يكتنفها من غموض؟

قال مداعبًا:

– وشعورى نحوك تغذيه الثقة المطلقة فى هذا الشعور.

– سوف نحضر لاصطحابك يوم السبت القادم. أمى تصر على دعوتك لزيارة هذا المتحف فى «تسوج». الآن عليك أن تذهب لتنام فصوتك ينم عن الإرهاق. أحيانًا أشعر بالذنب أن وجّهتك لهذا العمل الشاق، لكن عدم معرفتك الألمانية كانت عقبة للحصول على عمل أفضل.

– لقد بذلت كل جهدك ولا ضرر عليك، لكننى فعلاً مجهداً وهذا العمل يستهلك كل طاقتى.

- فى السنة القادمة سوف يختلف الأمر.

وفى يوم السبت المتفق عليه اتخذوا طريقهم إلى «تسوج» سابينا وأمها وسالم، أما الأب فقد آثر انتظارهم فى البيت لشعوره بالألم فى أسنانه.

أثناء الطريق توقفوا على شاطئ إحدى البحيرات لالتقاط بعض الصور التذكارية ثم واصلوا سعيهم إلى المتحف، وهو من أكبر المتاحف الصناعية فى سويسرا كما وصفته الأم وعددت مقتنياته مؤكدة أنه كمهندس لا يليق أن يكون فى سويسرا ولا يزوره، وكان ما وصفته حقًا وصدقًا كما رآه سالم بعينيه.

يضم المتحف نماذج لتطور عدد من الصناعات الهامة كصناعة السيارات والقطارات منذ اختراعها وحتى آخر طراز فى الأسواق العالمية، لم تكن تلك النماذج صغيرة الحجم أو مقلدة عن أصلها، بل كانت عينات حقيقية كاملة الوصف والتفاصيل، فحين يتابع المشاهد تطور القطار يجد أمامه قاطرة كاملة تجر عربة كما أنشئت أول مرة، ثم ما آل إليها من تطور فى عصر البخار قديماً إلى عصر الديزل ومن بعده عصر الكهرباء فى تتابع واستمرار من ناحية الحجم والشكل والذوق، كذلك السيارة من خلال عشرة أطراز مختلفة ويتابع المشاهد صناعة العجلات منذ اخترعها الإنسان من الحجر حتى عصرنا الحديث، وغيرها وغيرها.

شاهد سالم فى هذا المعرض الضخم أول سفينة فضاء انطلقت لتقهر جاذبية الأرض وتدور حولها «جيمنى ١»، وكذلك شاهد جناحًا خاصًا لأجهزة الاتصال الحديثة. استمرت جولتهم فى المتحف أو المعرض خمس ساعات متصلة دون أى شعور بالملل أو التعب والتقطوا العديد من الصور

بجانب القطارات العتيقة التى كانت تجرها الخيول. فجأة هطلت الأمطار بغزارة وهم فى طريقهم لمغادرة المكان فأسرعت الأم بفتح مظلتها وحملها سالم عنها حاميًا رؤوسهم من الماء حتى دلفوا إلى السيارة وانطلقوا إلى بيتهم للطعام ومزيد من المسامرة.

قالت له الأم والسيارة تنهب الطريق نحو غايتها المحددة:

- هذه الأمطار تهطل دون إنذار ثم تنقطع وتسطع الشمس كأن شيئًا لم يكن.. هكذا الحال فى الصيف، أما فى الشتاء فلا نرى الشمس إلا نادراً. فى مصر تنعمون بالشمس والجو الدافئ معظم العام.

- فى الإسكندرية خاصة حيث أعيش تجرب أيضًا شتاءً ممطراً لمدة ثلاثة أشهر، ثم يعتدل الجو بين دافئ وحار، لكن هذا الشتاء لا يبدأ قبل شهر نوفمبر على الأرجح.

- هنا قد يبدأ الشتاء مع بداية سبتمبر ويستمر ثمانية أو تسعة أشهر.

سكت سالم قليلاً ثم قال:

- لهذا تزدهر مقاولات الحدائق فى شهور الصيف ولا ينتظر لها التواصل فى شهور الشتاء؟

قالت سابينا:

- على كل حال فالدراسة تستأنف فى شهر سبتمبر.

قال سالم:

- كذلك الحال فى مصر.

قالت الأم:

- فى العطلة الصيفية القادمة سنكون أفضل استعداداً لاستقبالك، سوف نتقدم بطلب لمصنعنا ليضموك إلى برنامج التدريب الصيفى لطلبة الجامعة حيث تقضى ثلاثة شهور الأجازة بمكافأة مالية لا بأس بها مع توفير حجرة للإقامة.

- سوف يتيح لى ذلك فرصة رؤيتكم كل يوم.

قالت سابينا وكانت تتابع الحديث بشغف:

- نحن فى حاجة لهذا الوقت لكى تتعلم الألمانية وتعلمنى العربية كما وعدتنى.

- سوف ألتحق بمعهد جوتة لتعليم اللغة الألمانية فور عودتى للإسكندرية حتى لا أبدأ معك من الصفر.

ضحكت الأم قائلة:

- فى سويسرا يتحدث الناس الألمانية بشكل مختلف لا ينفع معه أن تتعلمها فى مكان آخر، لكن الكتابة لا تختلف بالطبع.

قالت سابينا:

- ستكون هذه مهمتى، سأجعله يتحدث اللهجة السويسرية كأهلها.

ابتسمت الأم قائلة:

- أعرفك حين تعزمين على أمر.. هكذا كان إصرارى أيضًا حين قابلت والدك وتزوجته ولم أكن قد بلغت العشرين.

قالت سابينا وكأنها تحدث نفسها:

- أتمنى أن أجرب سعادتك مع أبى وأظننى سأنالها مثلك.

وشملت الثلاثة لحظة صدق وصفاء نفسى نادرة. وجدوا الأب فى انتظارهم وقد أعد لهم طعام الغداء، استقبلهم قائلاً:

- الآن طعام الغداء هو طعام العشاء، لقد تأخر بكم الوقت.

قالت سابينا وهى تطبع قبلة على وجنته:

- كان لا بد أن يشهد مهندس المستقبل تاريخ الهندسة ليسهم فيه.

نظر الأب إلى سالم وقال متوددًا وابنته تترجم:

- احذر منها فهى تفهم أكثر مما تبدى.

قال سالم:

- هذا أفضل من أن تبدى أكثر مما تفهم.

صفقت بيديها فرحة، فقال الأب وهو ينسحب من بينهما.

- لا أظن أحدًا منكما سيساند رجلاً عجوزًا مثلى.

قالت الإبنة وهى تتعلق بذراعه:

- أربعون عامًا ليست بالعمر المديد.. انظر إلى جدتى فى النمسا وقد تخطت السبعين، أريد أن تحيا مائة عام وتظل إلى جوارى أشاغبك.

قال الأب وقد تخلص من قبضتها برفق:

- لا يزال هناك شهران حتى يحين عيد ميلادك فادخرى كلامك الجميل لوقت يناسبه.

قالت وصوت ضحكتها يرن فى البيت:

- أرأيت، إنه هو الذى يفهم أكثر مما يبدى، ولكن ألست ابنته؟

سأله الأب وهم يحتسون القهوة بعد أن انتهوا من الطعام وتنظيف المائدة

- ألا تفكر فى إستكمال دراستك للهندسة بجامعة زيورخ، يمكننى أن استفسر لك عن التفاصيل إن شئت.

أجابه سالم

- لم يبق أمامى سوي سنتين للتخرج، وانتقالي لاستكمال الدراسة هنا سوف يكلف أهلى فوق طاقتهم.

سكت الرجل قليلا ثم قال وزوجته وابنتهما تتابعان الحديث

- التكاليف المادية ليست مشكلة، يمكن الاقتراض من البنك لتغطيتها بفائدة ميسرة مع بدء التسديد بعد التخرج، كما يمكنك العمل بعض الوقت لكسب بعض المال.

استغرق سالم فى التفكير يبحث عن رد مناسب وأدركت الأم حيرته فتدخلت قائلة

- سالم لا يرتب لبقائه فى سويسرا.

قالت سابينا موضحة

- سوف نذهب اليه نحن فى مصر.

قال الأب مبديًا تفهمه

- هذا غير مستبعد خاصة وحالة الحرب بين مصر واسرائيل قد انتهت.

قالت الأم فى حماس

- السادات رجل عظيم، مدَّ يده للسلام ونبذ العداء بعد أن أثبت قدرة بلده على الحرب والانتصار، وأعتقد أنه سيحصل على تأييد العالم كله.

قال سالم

- نحن أيضا فى حاجة للسلام لكى نتمكن من بناء وطننا ونلحق بركب العصر، الحرب كانت ضرورة لإثبات قدرتنا وجديتنا في استرداد أرضنا.

قال الأب مستغرقاً فى النقاش

- لمصر مكانتها العريقة فى هذا الجزء من العالم وهى قادرة في تصورى على صنع السلام لكن الأمر يختلف مع بقية جيرانها.

قالت الأم بحصافة

- إذا كان السلام فى مصلحة الدول الكبرى فسوف يتحقق حتماً، حتى حياد سويسرا لم يتحقق بإرادة شعبها وحسب وإنما أيضاً برغبة الأقوياء فى هذا العالم.

قال الأب متلمساً يد زوجته وهو ينهض من مقعده

- سوف نذهب لموعد عاجل مع طبيب الأسنان لن يستغرق ساعة فنرجو المعذرة

قالت سابينا غير خافية سعادتها لاختلائهما معاً

- سوف أحضر ألبومات صورى ليتعرف سالم على صديقته منذ كانت رضيعة، وربما يتاح لى فرصة هزيمته فى الشطرنج.

تتابعت أمامه صورها وهى طفلة ثم فتاة صغيرة إلى أن أصبحت فتاة

ناضجة تتهيأ فيها الأنوثة وتستعد لفتنة الحياة. قال وهو يتأمل صورة كبيرة لوجهها لصقت على غلاف الألبوم

- فى عينيك سحر غريب يأسر الناظر إليهما دون أن يفقده الأمل فى الحرية بشرط أن يسكن فى مداها.

قالت فى دلال

- كنت خائفة من المصور، بسبب هذا الخوف شعرت أنت بالحرية؟

- أظن أن المصور كان خائفاً أن يفشل فى اقتناص جمالهما، لكن عدسته كانت أكثر منه ثقة. لو كنت المصور لشعرت بنفس الخوف، فما أراه يفوق قدرة أية عدسة أن تثبتهما.

- أنت تصلح أن تكون رساماً لا مصوراً فوتوغرافياً، فالعدسة لا تعرف الخيال الذى تتحدث عنه أما الفرشاة فتعشقه.

كانت تجلس إلى جواره تقص عليه حكاية كل صورة يتوقف أمامها متأملاً، فى واحدة منها كانت تقف فى إحدى الحدائق والجليد يحيطها من كل جانب بينما الابتسامة لا تفارقها فعلق على الصورة قائلا

- صفاء ابتسامتك ينافس صفاء الجليد من حولك، أليس من الغريب أن تشع الصورة دفئاً؟

ضحكت بصوت عالٍ وقالت:-

- يوماً ما سنجرب سوياً هذا الجليد لتعرف كم هو قارص.

قال وقد شعر بيدها فى يده، أصابعهما تتشابك فى مودة وحب

- لن أشعر بالبرد أبداً وأنتِ إلى جوارى فدفء العاطفة أقوي من أى جليد.

نطقت عيناها بالحب وهى تنظر إليه، اقتربت منه تدعوه لدفء أعطافها فاحتضنها حانياً فى لحظة اختلط فيها الروحان وقد عبرا حواجز الجسد.

●●●●●

إفتراق على وعد اللقاء

توالت الأيام مثقلة بالعمل الشاق يلطف من جهدها صحبة صفوت فى النهار ورقة حديث سابينا فى المساء ولقاؤه بها فى عطلة نهاية الأسبوع حتى انصرم شهر أغسطس وبدأ شهر سبتمبر ومعه طلائع الشتاء التى أثرت على انتظام العمل وتواصله بسبب هطول الأمطار. خلال أسبوعين انخفضت أيام العمل إلى النصف وبدا لمن يراقب الموقف أن قراراً ما سوف يتخذ، قال لصاحبه وقد عادا من العمل فى يوم لا تقل شدته عما سبقه من أيام

- أعتقد أن استمرارنا فى هذا العمل أصبح بلا معنى، ولا يؤسف على عمل فقد جدواه.

اعترض صفوت على قوله

- أنت متأثر بتعب اليوم، أين ذهبت عزيمتك؟ لو عرضوا علىّ الاستمرار ثلاثة أشهر أخرى لوافقت على الفور.

- هذه نظرة مادية بحتة، الأجازة على وشك الانتهاء وقد حققت من رحلتى ما خططت له من أهداف.

قاطعه صفوت قائلا

- وهل نسيت صديقتك، كل يوم إلى جوارها يقرب بينكما، إذا عدت إلى مصر انتظرت الصيف التالى بفارغ من الصبر، كما أن شهرين فى بداية

العام الدراسى تفقدهما فى أوروبا ليس بمشكلة، سوف تحصل على البكالوريوس لا تقلق.

- هناك صلة بين ما تريده وما تحققه لك الأقدار مما ليس لك فيه اختيار.

- فى هذه اللحظة لا أريد غير حمام ساخن وعشاءً شهياً وأظن كلتا يستحق ذلك.

بعد مضى يومين على هذا الحديث حضر مدير مكتب المقاول إلى موقع العمل وتحدث معهما قليلاً ثم سلم كلاً منهما رسالة مكتوبة متشابهة فى شكلها ومحتواها:

"عزيزى

بحكم مسئوليتنا نجد أن معظم العقود المبرمة مع عملائنا على وشك الانتهاء، والعقود الجديدة ليست بالقيمة التى تحتم توظيف كل ما لدينا من عمالة، أيضا فنحن مقبلون على فصل الشتاء حيث ينخفض معدل الأداء لنوع العمل الذى نؤديه، لذا كان ضرورياً أن نقلل عدد العمال فى شركتنا لمواجهة الفترة المقبلة، ولما كان معلوماً لدينا أنك طالب بالجامعة والدراسة على وشك أن تبدأ لذا كان منطقيًا من وجهة نظرنا أن تكون من أول الذين قررنا الاستغناء عنهم. هذا لا يعنى مطلقاً أنك أقل كفاءة من غيرك فلا يعمل لدينا غير الأكفاء، وإنما فقط للأسباب التى ذكرناها. أملنا أن تتفهم موقفنا وسيظل مكتبنا مقدراً للجهد الذى بذلته مع فريقك لإنجاز ما كلفتم به، مع خالص احترامنا.."

نظر صفوت إلى زميله وقال دون أن يخفى أسفه

- سوف أفكر فى الصلة التى أشرت إليها فى حديثنا السابق، لابد أنها تحقق لك الكثير، حين أردت العمل وجدته وحين فقدت اهتمامك بالاستمرار فيه جاء من يخبرك بانقطاع صلتك به.

- لم أتوقع أن يحدث الأمر بتلك السرعة، لكن لا بأس فقد بدأ الحنين لمصر يأكل قلبى.

- لا أظننى أعود لمصر مبكراً هكذا، سوف أذهب إلى فرنسا لقضاء شهرين فى مزارع العنب هناك ثم أعود.

فى صباح يوم الجمعة التالى ـ آخر أيام العمل - قدم لهما إرنست هدية بسيطة طاقية من القطيفة لكل منهما زينت بعلم سويسرا من جانب ومن الجانب الآخر زينت بالورود، كانت لفتة طيبة وتذكاراً جميلاً، قال وهو يقدم هديته

- أتمنى أن أراكما فى العام القادم، لقد أمضينا معاً وقتاً لا ينسى.

شكره سالم قائلاً

- أرجو أن تزورنا فى مصر لنعبر لك عن اعتزازنا بصداقتك.

وقال صفوت مؤكداً

- لك أن تختار بين الأسكندرية علي ساحل البحر المتوسط أو صعيد مصر حيث أقيم.

قال إرنست

- سويسرا لا تملك بحراً كما تعرفان وزيارة مصر حلم لا يحققه غير الأثرياء، دعونا نتعاهد على اللقاء فى الصيف القادم.

في نهاية اليوم اصطحبهما إرنست إلي المكتب حيث استقبلهما مديره وشكرهما على الحضور ثم سلمهما مستحقاتهما المالية مع خطاب شكر وتقدير باللغة الألمانية

وقال لهما مودعاً

- إذا رغب أياً منكما فى العمل معنا فى الصيف القادم فليكتب لنا فى شهر مارس وسأرسل له عقد عمل مع تمنياتى لكما بالتوفيق فى الدراسة.

بعد عودته إلى المنزل مساءً توجه سالم إلىٰ كابينة التليفون للإتصال بسابينا وإخبارها بتلك التطورات وأن آخر أيام العمل قد انتهي بهدوء فأكدت له لقاءهما فى عطلة نهاية الأسبوع - كما اعتادا - ليرتبا خطواتهما المقبلة.

قال له صفوت وهو يلاحظ انشغاله بنفسه منذ عودته

- تبدو مهموماً منذ حديثك مع صديقتك، لابد أن اقتراب الفراق يزعجك. اسمع، غداً السبت لا يوجد ما يزعجنا مبكراً، لماذا لا نخرج للتمشية فى سكون الليل حولنا، لم نجرب ذلك من قبل؟

- فكرة رائعة خاصة والسماء صافية مرصعة بالنجوم.

كان الطريق المفضى للحقول خاليًا والسكون يكاد يغلف كل ما يحيطهما عدا حفيف الأغصان كلما استقبلت نسمة هواء عابرة.

قال سالم قاطعاً هذا السكون

- لم أتوقع أن ترتبط بى الفتاة عاطفيًا إلى هذا الحد، لقد أنهت

علاقتها بصديقها وهيأت أسرتها لقبول علاقة ممتدة بيننا بالرغم من معرفتهم جميعًا أن وجودى فى مصر مسألة مصير.. ما الذى تنتظره منى.

قال صفوت متحسساً أزمة صاحبه

- الحب يا صديقى.. كل الحب، أنت تفهم مقصدى.

قال سالم بعد لحظات صمت أعمل فيها ذهنه

- لكننى بينت لها أن الدين الإسلامى يحرم علاقة جنسية بدون زواج وهو ما لا يعبأ به المجتمع الأوروبى فى العصر الذى نعيشه.

- إذن فقد أعطيتها سبباً جوهرياً لمراجعة نفسها؟

- قالت لى فى وضوح وثقة أنها تقبل ذلك طالما أننى ملتزم به، لكنها أضافت أنه ربما أمكننا التفكير في الزواج مبكراً لتفادي حرمان لا مبرر له، كذلك لأظل وافياً لالتزامات دينى.

قال صفوت مندهشاً

- هذه فتاة فريدة من نوعها، آمنت بك إيماناً مطلقاً وهذا ما يخيفك؟

- بعد أيام قليلة سأغادر سويسرا على أمل العودة فى الصيف القادم، أى سنفترق لمدة تسعة أشهر بعد أن عشنا تلك الأيام الرائعة. هل تظن أن حباً كهذا يمكنه أن يدوم ويؤتى ثماره؟

- ماذا كان رد فعلها حين أخبرتها بانتهاء العمل، هل فوجئت أم استوعبت الخبر فى هدوء؟

- كانت هادئة كأنها على علم به.

- هذا يدل على أنها تعى ما تفعله. المشكلة أنك لا تصدقه أو تخشى من تصديقه.. يا صديقى هذه حالة حب صادقة وهى حالة نادرة.

- هذا أعظم مما كنت أحلم بتحقيقه من رحلتى.

- أنا متأكد أنها وجدت فيك ما جعلها تحبك هذا الحب، لا تتردد فى قبول هدية الأقدار.

لم يسترح سالم لوصف صاحبه لها هدية الأقدار وقال مؤكداً خواطره

- سيظل العقل هو حصن الأمان، والعقل لا يرفض المحاولة.

- صدقني المحاولة ناجحة، سوف أذكرك بتلك الشكوك حين تأتى لزيارتى معها فى منزلنا بأسيوط طالما لم تعّرفني بها فى سويسرا، أعرف أن الظروف لا تسمح، لكن فى مصر الأمر يختلف.

- تلك الأيام ربطت بيننا برباط من الأخوة لا ينفصل، سوف نتقابل بإذن الله فى مصر سواء فى أسيوط أو الإسكندرية.. فقط اتصل بى بعد عودتك من فرنسا .

فى الصباح ذهب "سالم" إلى أحد مكاتب السياحة فى "ديتيكون" لحجز مكان عودته إلى مصر فوجد موعداً قريبا يوم الإثنين بعد الغد، ثم يوم الجمعة التالى، ولما كان على علم بخطة سابينا وأسرتها التوجه إلى فرنسا يوم الجمعة المشار إليه، وهى مشغولة كالعادة طوال الأسبوع فى المصنع، فماذا يجديه المكوث فى سويسرا أسبوعاً بلا هدف؟ لهذا قرر الحجز على رحلة الإثنين ليصبح لقاءه بها فى الغد هو لقاء الوداع. كان مسوقاً بعقله ونفسه تلح عليه بتأجيل العودة والبحث عن عمل يوفر له الإقامة شهراً آخر. قالت له وقد عرفت بموعد عودته إلى مصر

- لماذا يتعجل القدر فراقنا؟

أجابها فى هدوء لا يخفى تأثره

- حدثتنى نفسى بالبقاء شهراً آخر، لكن هذا سيعطلني عن استئناف دراستى فى موعدها، بالرغم من إغراء وجودى معك وقتاً أطول إلا أن مصلحتنا تستلزم سفرى.

- لا أظنه قراراً حكيماً أن تتخلف عن بدء الدراسة، كما أنك تعلم أننا سنقضى الأسبوعين القادمين فى فرنسا، والأفضل أن نحسن استعدادنا للقاء الصيف القادم.

كانا يجلسان فى حجرة الاستقبال ببيتها بعد أن تناولوا طعام الغداء وأقبلت الأم تحمل "تورتة" كبيرة والأب من خلفها يحمل فناجين القهوة. قال سالم مازحاً باللغة الألمانية التي بدأ يتعلمها

- الأم تأتى مسرعة والأب يكاد يلحق بها.

رد عليه الأب مشجعاً

- ألمانية صحيحة تمامًا.

قال سالم

- الفضل لسابينا هى خير معلم.

قالت سابينا ضاحكة

- لكننى لست تلميذة نابهة، لم أتعلم من العربية غير "سلام عليكم".

لاحظ سالم جمال تصميم التورتة ثم إنتبه إلى إسمه مكتوباً عليها إلى

جواره تاريخ مولده فبدت عليه الدهشة مقرونة بالامتنان، قالت سابينا وهى تنظر إلى أمها بحب جارف

- صنعتها أمى خصيصاً لك بعد أن عرفت أن عيد ميلادك قد مضى بين أيامك الأولى فى سويسرا دون احتفال.

- تورتة جميلة جداً وأجمل منها السيدة التى صنعتها.

قالت السيدة فى تواضع

- يا بنى أنت لا تعرف قدر المحبة التى نشعر بها نحوك وكمّ السرور الذى يحققه تواجدك معنا.

قالت سابينا وهى تقدم له هدية مغلفة بورق ملون أنيق

- هذه هديتي لك تزين بها حجرتك فى مصر.. أرجو أن تعجبك.

فض عنها الورق الملون الذى يغلفها واستخرجها متأملاً، لوحة زيتية رائعة.

قالت سابينا وهو مستغرق فى تأملها

- إنه الكلب السويسرى رمز الوفاء مرسوم بريشة أحد مشاهير الرسامين فى بلدنا.

- ما أصدق هذا الرمز وما أجمله من تعبير، أشكرك لعمق مشاعرك، واسمحى لى أن أقدم لك تلك الهدية البسيطة.

قدم لها سالم هديته فقالت وهى تتناولها فى فرحة ظاهرة

- لكن عيد ميلادي يحين فى الشهر القادم.

قال سالم

- نعم أعرف ذلك، لكنني وقتها سأكون غارقاً فى الدروس والكتب.

سألته بشغف وفضول

- هل يمكننى أن أفتحها الآن؟

فتحتها على عجل كأنها طفلة صغيرة، استخرجت صندوقاً من البلاستيك الشفاف يحوى نموذجاً من الشمع لزهرة بنفسج بحجم ولون ورائحة طبيعية كأنها قطفت في تلك اللحظة من حديقة خيالية، وشاهد سالم فى عينيها دموع الحب فلم ينتظر منها أن تعبر بلسانها، قال من فوره وهو يستخرج من جيبه صندوقاً صغيراً

- وستجدى فى هذا الصندوق رمز وفائى أرجو أن يحوز إعجابك.

فتحته فوجدت فيه خاتماً من الذهب استغرقت فى تأمله وقوة مشاعرها نحوه تطغى على رد فعلها المنتظر. نظرت إلى والديها تطلب العون، أومأ الأب برأسه مشجعاً وأسرعت الأم تقول

- هذه أجمل هدية يقدمها شاب لفتاة.

قالت سابينا متسائلة في دلال وعيناها تخاطبان وجدانه

- هل يمكنك أن تضعه فى أصبعى؟

قال سالم منتشياً بدلالها وهو يتناول الخاتم ليضعه فى أصبعها

- طالما أذن لى والداك.

قالت سابينا بعد لحظات وهى تتأمل الخاتم فى أصبعها بإعجاب

- لكن ليس من العدل أن تمضى أنت بلا خاتم!

فكر سالم قليلاً ثم قال وهو يستخرج خاتمه القديم من جيبه

- من حسن الحظ أن خاتمى القديم موجود معى يمكنك أن تضعيه فى أصبعى فيصبح له المعنى الذى يرضيك ويتحقق العدل.

قالت سابينا وقد تذكرت الخاتم الذى كان فى أصبعه حين تعرفت به

- موافقة لكن بشرط ألا تنزعه أبداً من أصبعك حتى أشترى لك واحداً غيره.

قال سالم

- تأكدى أن ذلك لن يحدث ما حييت.

تذكر سالم أنامل أصابعها وهى تحرك الخاتم فوق خنصر يده اليمني فى مودة وحب.

كانت أنامل يده اليسرى فى الحقيقة هى التى تتحرك مستدعية تلك الذكرى وهو جالس فى طائرة "سويس آير" بمطار زيورخ منتظراً الرحيل. تذكرها وهى تحتضنه مودعة على رجاء اللقاء فى الصيف القادم بوعد الاتصال المستمر بالخطابات، وأمها وهى تقبل وجنتيه مؤكدة أن لها الآن ابنًا فى مصر، وأبوها الذى بارك خطاهما وتمنى لهما التوفيق.

كانت سابينا مصرّة على اصطحابه إلى المطار لكنه أقنعها بتجنب تلك المشقة نظراً لسفره فى وقت مبكر من يوم الإثنين وهو بداية أسبوع عمل لها،

ولكى يطمئنها أخبرها بوجود جار له فى القرية عرف بسفره فى ذلك الموعد واتفق معه أن يقله إلى المطار بسيارته.

لم يكن وداعه لصفوت مؤلمًا كما كان لزملائه الآخرين من الطليان واليوغسلاف المقيمين معه فى المنزل لأن لقاءه بصفوت فى مصر لم يكن مستبعداً فى خاطره وإنما شعر أنه لن يرى الآخرين بعد اليوم.

آتاه صوت محركات الطائرة ينبهه لبدء الإقلاع عن تلك الأرض التى ضمته لما يقرب من ثلاثة أشهر كشفت له فيها عما كان يجهله فى نفسه وفى الحياة، وحمل معه من ذكرياتها ما لن ينساه، وارتبطت بمستقبل حياته كما رسمه وتمناه أو على الأقل ارتبط به منها مصير فتاة، أما ما ادخره من مال فمصيره الفناء.

تُرى هل كان سيصعد سلم الطائرة بإرادته لو علم أنه لن يراها مرة أخرى؟

●●●●●

هكذا تهدى الأقدار

كانت لحظات خروجه من المطار مصافحًا وجوه الجموع المنتظرين لذويهم وأقاربهم ثم استقباله لشوارع القاهرة وهى تموج بالحركة والحياة، لحظات مفعمة بالشوق، لقد عادت سماء مصر تظله وأرضها تقله وهواؤها يحيه، بعد أن حُرم منها ثلاثة أشهر.

استقل القطار من محطة باب الحديد عائداً إلى الإسكندرية حيث استقبلته أسرته بمشاعر دافئة وأحضان حانية فقد كانت المرة الأولى التى يغيب عنهم. قص عليهم باختصار أحداث رحلته فحمدوا الله على توفيقه ولم يعترضوا على مارتبه وسابينا من مستقبل مشترك وأثنوا على نبل خلقها وسمو مسلك أسرتها نحوه منذ البداية. كانت نصيحة والده المنتظرة ألا تؤثر تلك العلاقة سلبًا على دراسته، فنجاحه وتفوقه هو السبيل الوحيد لتحقيق ما خطط له.

انتظم فى دراسته بعد أسبوع من عودته، وآبت به الحياة إلى منوالها الرتيب عدا الرسائل الأسبوعية المتبادلة مع سابينا والتى كانت تشرك كل منهما فى حياة الآخر بكل تفاصيلها كأنهما يعيشان معًا. حدثته عن طموحها أن تلتحق بمدرسة الطب النفسى بعد أن تنهى تعليمها الثانوى، سألته إن كانت تلك الدراسة ستتيح لها عملاً بمصر، حدثها هو عما يطالعه من كتب وما يشغله من أفكار. لم يكن يخلو حديثها من قفشة أو موقف ظريف يرسم البسمة على شفتيه وهو يقرأ خطابها ويتذكر به وجهها الصبوح،

لكنهما أبداً لم يتبرما من بعد المكان وكأنه لا زال هناك مقيم فى «بريكون» يمكنها أن تحضر إليه وقتما تشاء. وفى شهر أبريل أكدت له أن اسمه فى قائمة الطلبة التى صدّقت إدارة المصنع على تدريبهم فى الأجازة الصيفية القادمة، وهو ما يعنى وجودهما معًا ثلاثة أشهر متصلة، كان رده عليها مفعمًا بالأمل وجد الاجتهاد فى تعلم اللغة الألمانية التى يدرسها فى معهد جوته إلى جانب دراسته فى الجامعة ومطالعاته الأخرى.

بدأت امتحانات آخر العام كالعادة فى شهر مايو وقبل أن توشك على الإنتهاء فى شهر يونيه استخرج جواز سفره الجديد وبدأ يستعد للسفر إلى سويسرا فور انتهائه من الامتحانات، لكنه فوجئ بمرض والده الذى ألزمه الفراش، وبالرغم من نصيحة والده ألا يرجئ سفره لهذا السبب لأنه مرتبط بموعد بدء التدريب فى المصنع، كذلك لانتظار خطيبته له إلا أن «سالم» أصرّ أن يطمئن أولا على صحة والده، على الأقل بمعرفة سبب علّته. لم يكن ذلك بالأمر الهين، فقد تعدد الأطباء واختلف التشخيص وتراكمت نتائج التحاليل والحالة الصحية لوالده تتدهور بشكل ملحوظ. لم يجد سالم بداً من الاتصال بسابينا وإطلاعها على ما يجرى فى محيط أسرته وأنه يمر بمحنة شديدة، فهو من ناحية لا يمكنه التخلى عن والده فى مرضه، ومن ناحية أخرى يشعر بالإحباط لإخفاقه فى الحضور فى موعده والتقائه بها كما خططا وتواعدا لشهور. ولم تخفِ عنه شعورها بالحزن لتسرب تلك الأيام من بين أيديهما لكنها فى نفس الوقت واسته فى مرض والده وأكدت التزامه بأن يكون لجواره حتى يشفى وأنها ستفعل نفس الشئ لو كانت مكانه، وأن شهراً واحداً يقضيه معها فى سويسرا بعد شفائه سيكون رائعًا، لكن الأجازة انصرمت ووالده يذوى غير مستجيب لأى علاج حتى يئسوا من شفاه ثم

وافته المنية فى منتصف شهر أكتوبر وسالم يستهل عامه الأخير فى الجامعة فحزن حزنًا شديداً، ثم تذكر نصيحته أن تفوقه هو السبيل الوحيد لتحقيق ما يطمح له فانكب على دروسه بدافع من الحزن والغضب معًا.

كانت سابينا تكتب له كعادتها تحاول أن تنتشله من تلك الأحاسيس حتى أفلحت حين أخبرته أنها قررت بتشجيع من والديها أن تزوره فى الصيف المقبل وتقضى معه أسبوعين كى تحتفل بنجاحه وحصوله على بكالوريوس الهندسة، وقد حفزه ذلك على مزيد من التحصيل والاستذكار وأخبرها أنه سيجتهد ليحصل على تقدير الامتياز ليكون الاحتفال جديراً بحضورها.

اعتاد سالم منذ عودته من سويسرا على تلقى خطاباتها بصفة منتظمة لم تتخلف قط، حتى حين كان البريد يشككه فى موعدها كانت خطاباتها تأتى مزدوجة فى تواريخ مرتبة كما كتبتها وأرسلتها، لهذا حين لاحظ تأخرها تلك المرة لم يراوده شك أنها تتراكم فى مكتب البريد وأنها ستأتى مجتمعة، ولكن بعد مرور شهر دون أن يصله خطاب منها بدأ القلق يساوره، وكان ذلك فى شهر مارس حين بدأت خطاباته لها تحمل العتاب والشعور بالوحدة بدون حديثها الذى يؤنسه، ولم يأته منها برغم خطاباته العديدة أى رد يفيده بما يدور هناك. ولما كانت امتحانات آخر العام تقترب فقد عقد عزمه ألا يشغله عن التحصيل شاغل حتى يحقق ما وعدها به ويحصل على الامتياز فى البكالوريوس وإن بدا أن ذلك لم يعد يهمها. كان حضورها المزمع فى الصيف يدفعه للإجتهاد والنفس مشوقة متلهفة والآن غموض موقفها والشك فى تمسكها بما وعدت به يدفعه أيضًا للإجتهاد ولكن النفس غاضبة

متحدية. وما أن انتهت الامتحانات والثقة تملؤه فى تفوق إجاباته وتحقيق ما يطمح إليه من تقدير كتب لها الخطاب التالى :

«عزيزتى

اليوم انتهيت من آخر الإمتحانات، أديته على ما يرام، أنتظر الحصول على ترتيب متقدم يؤهلنى للإلتحاق بوظيفة معيد فى الجامعة، هكذا أيضًا يوحى إلىّ أساتذتى. لازلت أحلم أن تشاركينى هذا النجاح كما وعدت بزيارتك لى فى مصر بالرغم من أن هذا الحلم قد بهتت ملامحه فى خيالى وقوضت جدواه الشكوك منذ انقطعت رسائلك عنى ما يزيد على أربعة أشهر دون مبرر مفهوم . كادت الحيرة تشتت ذهنى لولا أن عزمت أن أنكب على دروسى وألا أستسلم ليأس يكلفنى مستقبلى. الآن وقد انتهيت من مهمتى الأساسية أعود إليك متسائلاً أليس من حقى أن أتبين سببًا لتحولك عنى بعد أن اتفقنا بمحض إرادتنا أن يرتبط مصيرنا ؟ لقد كان عزمى أن نعقد قراننا حين تحضرين إلى مصر تلبية لرغبتك ألا تتأخر تلك الخطوة ونسبب الحرمان لأنفسنا دون مبرر، ذلك بالرغم من وفاة والدى الذى لم يمض عليه عام بعد .

اليوم لا أدرى إن كان ذلك ممكنًا فى أى وقت بعد أن انقطعت بى السبل إليك. هل تراجع والداك عن مساندتك؟ لا أكاد أصدق. هل حاول فرانس أن يثنيك عن إنهاء علاقتك به؟ إن شخصيتك التى أعرفها جيداً كما أعرف نفسى لا يمكن أن تستقيم مع هذه الافتراضات ولابد أن فى الأمر سراً تكتمونه واتفقتم ألا تفصحوا عنه، لكننى أود أن أخبركم بأن هذا ليس عدلاً، وأننى عرفت فى سويسرا قومًا لهم شيم وصفات مختلفة عما تصوره لى ظنونى فى تلك اللحظة. عرفت فيهم نبل الخلق وصفاء النفس واستقامة

المسلك وسمو الشعور، عرفت فيهم حبهم ومودتهم الحقيقية لى وبادلتهم نفس القدر من المودة والحب حتى تمنيت أن يرتبط مصيرى ومصيرك معًا وهو ما ارتضيناه سويًا. لن أنسى وعدى لك ألا أنزع الخاتم من أصبعى لأنك أنت التى وضعتيه أما خاتمى فى أصبعك فلا أدرى فى تلك اللحظة ماذا كان مصيره خلال تلك الشهور. ولن أنسى الكلب السويسرى الذى أنظر إليه الآن فوق مكتبى رمزاً للوفاء.

ليس لدى أمل كبير أن يصلنى منك رد على تلك الرسالة، فلوكان فى نيتك إخبارى بشئ لفعلت خلال أربعة أشهر مضت، لكننى أردت أن أنفث عن نفسى ما حبسته فيها من خواطر فى الفترة الماضية ومن بعدها أمضى فى الحياة حاملاً علامة استفهام ليس لها جواب، لم أصنعها ولم أسع إليها ولم أنتظرها من أعز الناس الذين عرفتهم فى حياتى ، وأعدك أن تكون تلك رسالتى الأخيرة التى أخطها إليك متمنيًا لك كل السعادة».

كان حزينًا آسفًا وهو ينهى رسالته تلك النهاية التى لم تخطر على باله مطلقًا، لكنه كان أيضًا مصراً ألا يترك نفسه نهبًا للظنون تستهلكه وتقضى عليه فوضع لها حداً تنتهى عنده.

مرت عدة أيام بعد إلقائه المظروف الذى يحمل تلك الرسالة فى صندوق البريد، قضاها معتكفًا فى حجرته يقرأ قصة «سومرست موم» «عن العبودية الإنسانية»، كان أحد الأصدقاء قد أعارها له مؤكداً قيمتها الفنية والأدبية العالية، فجأة سمع دقات خفيفة على باب الحجرة وصوت أمه الخفيض ينادى عليه فنهض يستطلع الأمر فوجدها تحمل له رسالة أتى بها ساعى البريد منذ لحظات .. كانت الرسالة من سويسرا.

نظر إلى الرسالة فى وجوم وتردد طويلاً قبل أن يفتحها، لم يكن مطمئنًا

لفحواها وصورت له ظنونه ما يسىء. لماذا انتظرت رسالتة الأخيرة لكى ترد عليه وأى تفسير هناك منتظر لكل هذا الغموض؟

فتح الرسالة، قلبه ممتلئ خوفًا، لاحظ أنها ليست بخط يدها وأن الموقع عليها هى أمها، كما وجد فى محتويات الرسالة صورة لسابينا فى هيئة غريبة لم يرها من قبل، ازداد قلبه نبضًا وعيناه تسبقان عقله نحو سطورها الآتية:

«عزيزى إبننا الموجود فى مصر:

ما سأخبرك به يتطلب منك كل الشجاعة الممكنة بل كل الإيمان بالله الذى يملأ قلبك والذى برهنت لنا عليه فى أفعالك قبل أقوالك.. لقد تطلب الأمر منا كل ذلك بل أكثر من ذلك. إنه يعود إلى شهر مارس الماضى حين تأكد لنا أن سابينا قد أصيبت بمرض لاشفاء منه سينهى حياتها خلال أشهر قليلة، عانينا كثيراً حتى أمكن للأطباء تشخيص هذا المرض والتأكد منه ثم بدأت رحلة العذاب الحقيقية مع انتظار النهاية المحتومة التى تحققت فى الشهر الماضى بعد أسوأ أيام يمكن للمرء أن يتصورها فضلاً عن احتمالها، لولا إيمانه بقضاء الله. ما ضاعف من عذابنا هو الصراع الذى نشأ فى قلوبنا جميعًا بين الرغبة فى إطلاعك على ما يجرى واليقين من أننا لو فعلنا ذلك فالنتيجة هى عذابك معنا وفقدانك لمستقبلك، لأنك ما كنت لتبقى فى مصر مدركًا أن سابينا تذوى فى أيامها الأخيرة، وهذا يعنى ضياع فرصتك فى الحصول على الامتياز الذى وعدتها به لتصبح خسارتنا مضاعفة. فى النهاية رضخنا لمشيئتها أن نلتزم الصمت تمامًا حتى تنهى إمتحانك فإذا امتد عمرها لما بعد ذلك كانت فرصة الوداع قائمة، لم يكن أحب إليها من أن تراك إلى جوارها وتطمئن عليك وهى تغلق عينيها إلى

الأبد، لكن القدر كان أسرع من تقديرنا فأسلمت الروح وهى تستحلفنا أن نلتزم بالوعد ولا نخبرك بشئ حتى تفيدنا بأنك اجتزت امتحاناتك على ما تتمنى ونتمنى لك. فعلنا ما تصورناه صوابًا وإذا شعرت بالغضب نحونا فسوف نتفهم موقفك. نحن قدرنا الأمر كما نراه وربما كنا مخطئين من وجهة نظرك لكننا حاولنا أن نحافظ على ما تبقى لنا وهو أنت، ولم نجد مفراً من احترام رغبتها. أتذكر تلك اللحظات التى كان خيالها يسبح فى المستقبل متعجلة زيارتها لك فى الصيف كما خططت، كنا - والدها وأنا - نرتب لمفاجئتكما بالحضور بعد الأسبوع الأول لزيارتها لك فى مصر ونعقد قرانكما فى حفل عائلى بسيط حتى تتم مراسم الزفاف فى وقت لاحق يتفق مع ظروفكما معًا، كانت تهتز نفسها بالسعادة بشكل لم أعهدها به فى حياتها، كم تمنيت لو أن القدر منحها ومنحنا تلك اللحظات فربما تحقق بها بعض العزاء.

إننا يا بنى الآن أكثر تماسكًا ونحاول أن نستأنف حياتنا بما تبقى فينا من يقين آملين أن نراك فى القريب، وكلما كان ذلك ممكنًا. نحن نعرف ضرورة وجودك فى مصر ولا نطلب منك أن تهجر وطنك لتعيش معنا فهذا أكثر من حقنا عليك لكن شعورنا المستمر بوجودك إلى جوارنا يمكن أن تحققه أيضًا زياراتك لنا وليس لدينا شك فى أنك لن تنسانا.

الخاتم الذى أهديته لسابينا أحتفظ به معى لحين حضورك كى أعيده لك فهو من ذكراها وقد أوصتنى بذلك، أما صورتها المرفقة بالخطاب فهى آخر صورة لها سمحت لنا بالتقاطها قبل أن يفت المرض فى بنيانها بدرجة تمحو ملامح الإنسان وتطفئ فيه بريق الأمل. أوصتنى ألا أطبع من تلك الصورة

سوى نسخة واحدة تكون معك لأنها أخفت عنك نفسها تلك الأيام وتنشد منك أن تسامحها وتغفر لها قسوتها أن تفارقك بتلك الطريقة المؤلمة.

هنالك أيضًا خطاباتها التى كتبتها لك كلما أسعفتها يقظتها ورغبت فى الحديث إليك أحتفظ بها مع أشياء أخرى أوصت بها إليك.

لن يهدأ لنا بال حتى تكتب إلينا تطمئنا على نفسك بعد تلك الصاعقة التى لا نعرف كيف نخفف وقعها عليك، تماسك ولا تفقد ثقتك بالحياة واعتبر الألم والحزن أشياء ضرورية للإحساس بها بالرغم من أنهما أحيانًا يزيدان عن احتمال الإنسان».

أنهى سالم الرسالة وهو يشعر أن جزءًا من نفسه قد بُتر إلى غير رجعة، وقفزت إلى مخيلته تلك الصور المفزعة عن العبودية الإنسانية.

انتهت

٥ أكتوبر ٢٠٠١

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
[١] باحث عن حقيقة !	٥
[٢] أى اختيار؟	٨
[٣] نحو المجهول	١٢
[٤] ظنون وهموم	١٤
[٥] أمل يتأرجح	٢٣
[٦] أحضان العقل	٣٩
[٧] انفراح	٤٢
[٨] هل هى مفاجأة؟	٥٢
[٩] لحظات شـدة	٦١
[١٠] همس الحب	٧٢
[١١] بين بريكون وبادن	٨٧
[١٢] هل يلتقى المتوازيان؟	٩٨
[١٣] فى مدينة تسوج	١٠٨
[١٤] افتراق على وعد اللقاء	١١٧
[١٥] هكذا تهدى الأقدار	١٢٨

صدر للمؤلف

- حصاد الفن مجموعة قصص قصيرة (نفدت)
- ملامح الريادة الإنسانية (نفد)
- ميراث العهد (رواية) المكتب المصرى الحديث
- وعد العمر (رواية) المكتب المصرى الحديث
- تحديات الإنسانية فى قرن جديد المكتب المصرى الحديث

رقم الايداع
٢٠٠٣ / ٥٩٣١

الترقيم الدولى I.S.B.N.
٩٧٧-٢٠٩-٠٨٩-٩